

جبران خليل جبران



الاهنحة للكسرة

الكتبة والثقافية



0201881

Library Alexandria







جبران خليل جبران

# الأمم المتحدة والتكسيرة

الكتبة والثقافية  
بيروت - لبنان



الى التي تحقق الى الشمس  
بأجفان جامدة ، وتقبحض  
على النار بأصابع غير  
مرتعشة ، وتسمع نغمة  
الروح « الكلي » من وراء  
ضجيج العميان وصراخهم  
الى M.E.H. أرفع  
هذا الكتاب .

جبران





## توطئة



كنت في الثامنة عشرة عندما فتح الحب عيني بأشعته  
السهيرية ، ولمس نفسي لأول مرة بأصابعه النارية . وكانت  
سلمى كرامه المرأة الأولى التي أيقظت روحي بمحاسنها .  
ومشت أمامي إلى جنة المواطف العلوية ، حيث تمر الأيام  
كالأحلام وتنقضي الليالي كالأهراس .

سلمى كرامه هي عفتي عبادة الجمال يجالها ، وأرتقي  
خفسايا الحب بانعطافها ، وهي التي أنشدت علي مسمني أول  
بيت من قصيدة الحياة المعنوية .

أي فتى لا يذكر الصبية الأولى التي أبدلت غفلة شببته  
بيقظة هائلة بلطفها ، جارحة بعدوبتها ، فتاكة بجلاوتها ؟ من  
منا لا يدوب حيناً إلى تلك الساعة القريبة التي إذا اتبته  
فيها فجأة رأى كليته قد انقلبت وتحولت ، وأعماقه قد  
اتسعت وانبسطت وتبطننت بانفعالات لذيذة بكل ما فيها من  
مرارة الكتان ، مستحبة بكل ما يكتنفها من الدموع والشوق  
والسهاد ؟

لكل فق سلى تظهر على حين غفلة في ربيع حياته وتجعل  
لانفراذه معنى شعرياً وتبدل وحشة أيامه بالأنس ، وسكينة  
لياليه بالأنعام .

كنت حائراً بين تأثيرات الطبيعة وموحيات الكتب  
والأسفار عندما سمعت الحب يهمن بشفتي سلى في آذان  
نفسي ، وكانت حياتي خالية مقفرة باردة شبيهة بسبات آدم  
في الفردوس عندما رأيت سلى منتصبه أمامي كعبود النور .  
فسلى كرامه هي حواء هذا القلب المملوء بالأسرار والعجائب ،  
وهي التي افهمته كنه هذا الوجود وأوقفته كالمرآة أمام  
هذه الأشباح . حواء الأولى اخرجت آدم من الفردوس  
بإرادتها وانقياده ، أما سلى كرامه فأدخلتني الى جنة الحب  
والطهر بجلاوتها واستعدادي ، ولكن ما أصاب الإنسان  
الأول قد أصابني ، والسيف الناري الذي طرده من الفردوس  
هو كالسيف الذي أخافني بلعان حده وأبعدني كرهاً عن  
جنة المحبة قبل أن أخالف وصية وقبل أن أذوق طعم ثمار  
الخير والشر .

واليوم ، وقد مرت الأعوام المظلمة طامسة بأقدامها  
رسوم تلك الأيام ، لم يبق لي من ذلك الحلم الجميل سوى  
تذكارات موجمة ترفرف كالأجنحة غير المنظورة حول  
رأسي مثيرة تهديدات الأمسى في أعناق صدري مستقطزة  
دموع اليأس والأسف من أجناني .. وسلمى - سلمى

الجنية العذبة قد ذهبت إلى ما وراء الشفق الأزرق ولم يبق من آثارها في هذا العالم سوى غصات أليمة في قلبي وقبر رخامي منتصب في ظلال أشجار السرو . فذلك القبر وهذا القلب هما كل ما بقي ليحدث الوجود عن سلس كرامه ، غير أن السكينة التي تخفر القبور لا تقشي ذلك السر المصون الذي أخفته الآلهة في ظلمات التابوت ، والأغصان التي امتصت عناصر الجسد لا تبيح بحفيها مكنونات الحفرة .

أما غصات هذا القلب وأوجاعه فهي التي تتكلم وهي التي تنسكب الآن مع قطرات الحبر السوداء معلنة للنور أشباح تلك المأسام التي مثلها الحب والجمال والموت .

فيا أصدقاء شيبتي المنتشرين في بيروت ، إذا مررتم بتلك المقبرة القريبة من غابة الصنوبر ادخلوها صامتين وسيروا ببطء كيلا تزعج أقدامكم رففات الراقدين تحت أطباق الثرى ، وقفوا متهيئين بجانب قبر سلى وحيوا عني التراب الذي ضم جثثنا ثم اذكروني بتنهدة قائلين في نفوسكم: هنا دفنت آمال ذلك الفتى الذي نفثه صروف الدهر الى ما وراء البحار ، وههنا توارت أمانيه واتزوت أفراحه وغارت دموعه واضمحلت ابتساماته ، وبين هذه المدافن الخرساء تنمو كآبته مع أشجار السرو والصفصاف ، وفوق هذا القبر ترفرف روحه كل ليلة مستأنسة بالذكرى ، مرددة مع أشباح الوحشة نديبات الحزن والأسى ، نائحة مع الغصون على ضيعة كانت

بالأمس نعمة شجيرة بين شفتي الحياة فأصبحت اليسوم سرأ  
صامتاً في صدر الأرض .

استعلمكم يا رفاق الصبا بالسماء اللواتي احبتن قلوبكم ان  
تضعوا أكاليل الأزهار على قبر المرأة التي احبها قلبي - فرب  
زهرة تلفونها على ضريح ملسي تكون كقطرة الندى التي  
تسكبها أجنان الصباح بين أوراق الوردة الذابلة .



## الكتابة الخرساء



أنتم أيها الناس تذكرون فجر الشيبية فرحين باسترجاع  
رسومه متأسفين على انقضائه ، أما أنا فأذكره مثلما يذكر  
الحرم الممتق جدران سجنه وثقل قيوده . أنتم تدعون تلك  
السنين التي تجيء بين الطفولة والشباب عهداً ذهبياً يهزأ بتعاب  
الدهر وهو أجسه ويطير مرفرفاً فوق رؤوس المشاغل والمهموم  
مثلما تجتاز النحلة فوق المستنقعات الخبيثة سائرة نحو البساتين  
المزهرة ؛ أما أنا فلا أستطيع أن أدعو سني الصبا سوى  
عهد آلام خفية خرساء كانت تقطن قلبي وتثور كالمواصف  
في جوانبه وتتكاثر فامية بنموه ، ولم تجد منفذا تتصرف منه  
إلى عالم المعرفة حتى دخل إليه الحب وفتح أبوابه وأثار  
زواياه . فالحب قد أعتق لساني فتكلمت ومزق أجنفاني  
فبكيت وفتح حنجرتي فتنهدت وشكوت .

أنتم أيها الناس تذكرون الحقول والبساتين والساحات  
وجوانب الشوارع التي رأت ألبابكم وسمعت همس طهركم ،  
وأنا أيضاً أذكر تلك البقعة الجيسة من شبال لبنان ، فما

أغمضت عيني عن هذا المحيط إلا رأيت تلك الأودية المملوءة  
 سحراً وهيباً، وتلك الجبال المتعالية بالمجد والعظمة نحو العلاء،  
 ولا سمعت أذني عن ضجبة هذا الاجتماع إلا سمعت خرير تلك  
 السواقي وحفيف تلك النصوص . ولكن هذه الحسن التي  
 أذكرها الآن وأتشوق اليها تشوق الرضيع إلى ذراعي أمه هي  
 هي التي كانت تعذب روحي المسجونة في ظلمة الحدائث  
 مثلها يتعذب البازي بين قضبان قفصه عندما يرى أسراب  
 البزاة تسبح حرة في الخلاء الواسع - وهي التي كانت تملأ  
 صدري بأوجاع التأمل ومرارة التفكير وتلجج بأصابع الحياة  
 والالتباس نقاباً من اليأس والقنوط حول قلبي - فلم أذهب  
 إلى البرية إلا عدت منها كثيراً جاهلاً أسباب الكتابة ، ولا  
 نظرت مساء إلى النجوم المتلونة بأشعة الشمس إلا شعرت  
 بانقباض متلف ينمو لجهلي معاني الانقباض، ولا سمعت تغريدة  
 الشحرور أو أغنية الغدير إلا وقفت حزينا لجهلي موحيات  
 الحزن .

يقولون ان الغباوة مهد الخلو والخلو مرقد الراحة - وقد  
 يكون ذلك صحيحاً عند الذين يولدون أمواتاً ويميشون  
 كالأجساد الهامدة الباردة فوق التراب ، ولكن إذا كانت  
 الغباوة العمياء قاطنة في جوار العواطف المستيقظة تكون  
 الغباوة أقسى من الهاوية وأمر من الموت. والصبي الحساس الذي  
 يشعر كثيراً ويعرف قليلاً هو أقسى المخلوقات أمام وجه  
 الشمس لأن نفسه تظل واقفة بين قوتين هائلتين متباينتين :

قوة خفيفة تجلق به في السحاب وتريه محاسن الكائنات من وراء ضباب الأحلام ، وقوة ظاهرة تقيده بالأرض وتغمر بصيرته بالغبار وتتركه ضائماً خائفاً في ظلمة حالكة .

للكتابة ايد حريرية الملامس قوية الأعصاب تقبض على القلوب وتؤلها بالوحدة ، فالوحدة حليفة الكتابة كما أنها أليفة كل حركة روحية . ونفس الصبي المنتصب أمام عوامل الوحدة وتأثيرات الكتابة شبيهة بالزنبقة البيضاء عند خروجها من الكمام ترتبش أمام النسيم وتفتح قلبها لأشعة الفجر وتضم اوراقها بمرور أخيلة المساء ، فان لم يكن للصبي من الملامي ما يشغل فكرته ومن الرفاق من يشاركه في الميول كانت الحياة امامه كحبس ضيق لا يرى في جوانبه غير انزال العناكب ولا يسمع من زواياه سوى دبيب الحشرات .

أما تلك الكتابة التي اتبعت أيام حدائقي فلم تكن ناتجة عن حاجتي الى الملامي لأنها كانت متوفرة لدي ، ولا عن افتقاري إلى الرفاق لأنني كنت أجدهم أينما ذهبت ، بل هي من اعراض علة طبيعية في النفس كانت تجيب إلى الوحدة والانفراد ، وتمت في روحي الميول الى الملامي والالعب ، وتخلع عن كتفي أجنحة الصبا ، وتجعلني أمام الوجود كحوض مياه بين الجبال يعكس بهدوئه المحزن رسوم الأشباح وألوان الغيوم وخطوط الأغصان ، ولكنه لا يجسد مراً يسير فيه جدولاً مترغماً إلى البحر .

هكذا كانت حياتي قبل أن ابلغ الثامنة عشرة، فتلك السنة هي من ماضي بمقام القمة من الجبل لأنها أوقفتني متأملاً مجاه هذا العالم وأرتني سبل البشر ومروج ميولهم وعقبات متاعبهم وكهوف شرائمهم وتقاليدهم .

في تلك السنة ولدت ثانية ، والمرء ان لم تحبل به الكتابة ويتمخض به اليأس وتضعه المحبة في مهد الاحلام تظل حياته كصفحة خالية بيضاء في كتاب الكيان .

في تلك السنة شاهدت ملائكة السماء تنظر اليّ من وراء أجفان امرأة جميلة ، وفيها رأيت أبالسة الجحيم يضجون ويتراكضون في صدر رجل مجرم - ومن لا يشاهد الملائكة والشياطين في محاسن الحياة ومكروهااتها يظل قلبه بعيداً عن المعرفة ونفسه فارغة من المواطف .





## يد القضاء



كنت في بيروت في ربيع تلك السنة المملوءة بالغرائب ،  
وكان نيسان قد أنبت الأزهار والأعشاب فظهرت في بساطين  
المدينة كأنها اسرار تعلنها الأرض للسماء . وكانت أشجار اللوز  
والتفاح قد اكتست بجمل بيضاء معطرة فبانن بسين المنازل  
كأنها حوريات بملايس ناصعة قد بعثت بين الطبيعة عرائس  
وزوجات لابناء الشعر والخيال .

الربيع جميل في كل مكان ولكنه اكثر من جميل في سوريا ..  
الربيع روح إله غير معروف تطوف في الأرض مسرعة وعندما  
تبلغ سوريا تسير ببطء متلفتة الى الوراء مستأنسة بأرواح  
الملوك والأنبياء الحائمة في الفضاء ، مترنمة مع جداول اليهودية  
بأناشيد سليمان الخالدة ، مرودة مع أرز لبنان تذكارات المجد  
القديم .

وبيروت في الربيع أجمل منها في ما بقي من الفصول لانها  
تخلو فيه من أوحال الشتاء وغبار الصيف وتصبح بين أمطار  
الأول وحرارة الثاني كصبية حسناء قد اغتسلت بمياه الغدير  
ثم جلست على ضفته تجفف جسدها بأشعة الشمس .

ففي يوم من تلك الأيام المفعمة بأنفاس نيسان المسكرة  
 وابتساماته الهيبية ، ذهبت لزيارة صديق يسكن بيتاً بعيداً  
 عن ضجة الاجتماع. وبينما نحن نتحدث راسمين بالكلام خطوط  
 آمالنا وأمانينا دخل علينا شيخ جليل في الخامسة والستين من  
 عمره تدل ملابسه البسيطة وملاحظته المتجمدة على الهيبية والوقار  
 فوقفت احتراماً ، وقبيل ان اصافحه مسلماً تقبدم صديقي  
 وقال : حضرته فارس أفندي كرامه . ثم لفظ اسمي مشفوعاً  
 بكلمة ثناء ، فحذق إليّ الشيخ هنية لامساً باطراف اصابه  
 جبهته العالية المكلفة بشعر أبيض كالثلج كأنه يريد أن يسترجع  
 إلى ذاكرته صورة شيء قديم مفقود ثم ابتسم ابتسامة سرور  
 وانعطاف واقترب مني قائلاً : انت ابن صديق حبيب قديم  
 صرفت ربيع العمر برفقتسه ، فما أعظم فرحي بمرآك وكم أنا  
 مشتاق إلى لقاء أبيك بشخصك !

فتأثرت لكلامه وشعرت يجاذب خفي يدنني اليه بطمأنينة  
 مثلما تقود الفريزة العصفور إلى وكره قيسل مجيء العاصفة .  
 ولما جلسنا أخذ يقص علينا أحاديث صداقته لوالدي متذكراً  
 أيام الشباب التي صرفها بقربه قالياً على مسامعنا اخبار أعوام  
 قضت فكفنها الدهر بقلبه وقبرها في صدره . . . ان الشيوخ  
 يرجعون بالفكر إلى أيام شبابهم رجوع الغريب المشتاق إلى  
 مسقط رأسه ، ويميلون الى سرد حكايات الصبا ميل الشاعر  
 على تنعيم أبلغ قصائده ، فهم يعيشون بالروح في زوايا

الماضي الغابر لان الحاضر يمر بهم ولا يلتفت ، والمستقبل يبدو لأعينهم متشجاً بضباب الزوال وظلمة القبر .

وبعد ساعة مرت بين الأحاديث والتذكارات مرور ظل الأغصان على الأعشاب ، وقف فارس كرامه للانصراف ، ولما دفوت منه مودعاً أخذ يدي بيمينه ووضع شماله على كتفي قائلاً : أنا لم أرَ والدك منذ عشرين سنة ولكنني أرجو ان أتميز عن بعاده الطويل بزياراتك الكثيرة .

فانحنيت شاكراً واعدأ بتتميم ما يجب على الابن نحو صديق أبيه .

ولما خرج فارس كرامه استزدت صاحبي من أخباره فقال بلهجة يساورها التحدر : لا اعرف رجلاً سواه في بيروت قد جعلته الثروة فاضلاً والفضيلة ماثراً . وهو واحد من القليلين الذين يجيئون هذا العالم ويفادرونه قبل أن يلامسوا بالأذى نفس مخلوق ، ولكن هؤلاء الرجال يكونون غالباً نساء مظلومين ، لأنهم يجهلون سبل الاحتيال التي تنقذهم من مكر الناس وخبثهم ... وللفارس كرامه ابنة وحيدة تسكن معه منزلاً فخماً في ضاحية المدينة ، وهي تشابهه بالأخلاق وليس بين النساء من قائلها رقة وجهالاً ، وهي ايضاً ستكون ناعسة لأن ثروة والدها الطائلة توقفها الآن على شفير هاربة مظلمة مخيفة .

لفظ صديقي الكلمات الأخيرة وظهرت على حياء لوائح  
الغم والأسف ثم زاد قائلاً : فارس كرامه شيخ شريف القلب  
كريم الصفات ولكنه ضعيف الارادة يقوده رياء الناس كالأعمى  
وتوقفه مطامعهم كالأخرس . أما ابنته فتتخضع بمتثلة لارادته  
الواهنة على رغم كل مافي روحها الكبيرة من القوى والمواهب .  
وهذا هو السر الكامن وراء حياة الوالد وابنته . وقد فهم  
هذا السر رجل بأتلف في شخصه الطمع بالرياء والخبث  
بالدهاء ، وهذا الرجل هو مطران تسير قبائحه بظل الانجيل  
فتظهر للناس كالفضائل . هو رئيس دين في بلاد الأديان والمذاهب  
تخافه الأرواح والأجساد وتخر لديه ساجدة مثلما تتعني رقاب  
الانعام أمام الجزار . ولهذا المطران ابن أخ تتصارع في نفسه  
عناصر المفاسد والمكاره مثلما تتقلب المقارب والأفاعي على  
جوانب الكهوف والمستنقعات . وليس بعيداً اليوم الذي  
ينتصب فيه المطران بلبسه الخيرية جاعلاً ابن أخيه عن يمينه  
وابنة فارس كرامه عن شماله رافعاً بيده الأئيمة اكليل الزواج  
فوق رأسها مقيداً بسلاسل التكهن والتعزيم جسداً طاهراً  
يحييه منتنة ، جامعاً في قبضة الشريعة الفاسدة روحاً سماوية  
بذات ترابية ، واضعاً قلب النهار في صدر الليل . هذا كل ما  
أستطيع ان اقله لك الآن عن فارس كرامه وابنته فلا تسلفي  
اكثر من ذلك لأن ذكر المصيبة يدنيها مثلما يقرب الموت  
الخوف من الموت .

وحول صديقي وجهه ونظر من النافذة الى الفضاء كأنه  
يبحث عن أمرار الأيام والليالي بين دقائق الأثير .

فهمت إذ ذاك من مكاني ، ولما اخذت يده مودعاً قلت له :  
غداً أزور فارس كرامه قياماً بوعدني له واحتراماً للتذكريات  
التي ابقتها صداقته لوالدي .

فبغت بي الشاب دقيقة وقد تغيرت ملامحه كأن كلامي  
القليلة البسيطة قد أوسحت اليه فكراً جديداً هائلاً ، ثم نظر  
في عيني نظرة طويلة غريبة - نظرة محبة وشفقة وخوف -  
نظرة نبي يرى في أعماق الارواح ما لا تعرفه الارواح ، ثم  
ارتعشت شفتاه قليلاً ولكنه لم يقل شيئاً ، فتركته وسرت  
نحو الباب بأفكار متضعضعة ، وقبيل ان يلتفت الى الورا  
رأيت عينيه ما زالتا تلبعانني بتلك النظرة الغريبة - تلك  
النظرة التي لم أفهم معانيها حتى عتقت نفسي من عالم المقاييس  
والكمية وطارت إلى مسارح الملا الأعلى حيث تتفاهم القلوب  
بالنظرات وتنمو الارواح بالتفاهم .

## في باب الهيكل



وبعد أيام وقد مللت الوحدة وتعبت أجهاني من النظر  
إلى أوجه الكتب العابسة علوت مركبة طالباً منزل فارس  
كرامه ، حتى إذا ما بلغت بي غابة الصنوبر حيث يذهب  
القوم للتنزه حول السائق وجهة فرسيه عن الطريق العمومية  
فسار خيباً على ممر تظله اشجار الصفصاف وتتايل على جانبيه  
الأعشاب والدوالي المتحرشة وأزاهر نيسان المبتسمة بثغور  
حراء كالياقوت وزرقاء كالزمرد وصفراء كالذهب .

وبعد دقيقة وقفت المركبة أمام منزل منفرد تحيط به  
حديقة مترامية الأطراف تتعاقق في جوانبها الاغصان وتمطر  
فضاءها رائحة الورد والفل والياسمين .

ما سرت بضع خطوات في تلك الحديقة حتى ظهر فارس  
كرامه في باب المنزل خارجاً للقائي كأن هدير المركبة في تلك  
البقعة المنفردة قد أعلن له قدومي ، فمش متأملاً وقسادي  
مرحباً الى داخل الدار ، ونظير والد مشتاق اجلسني بقربه  
يحدثني مستفسراً عن ماضي مستطلعاً مقاصدي في مستقبلي ،  
فكنت أجيبه بتلك اللهجة المعجمة بنعمة الأحلام والأماني

التي يترنم بها الفتیان قبل أن تقذفهم أمواج الخيال إلى شاطئ العمل حيث الجهاد والنزاع ... للشيبية أجنحة ذات ريش من الشعر وأعصاب من الأوهام ترتفع بالفتیان إلى ما وراء الغيوم فيرون الكيانات منموراً بأشعة متلونة بألوان قوس قزح ، ويسمعون الحياة مرتلة أغاني المجد والعظمة ، ولكن تلك الأجنحة الشعرية لا تلبث أن تمزقها عواصف الاختبار فيهبطون إلى عالم الحقيقة ، وعالم الحقيقة مرآة غريبة يرى فيها المرء نفسه مصغرة مشوهة .

في تلك الدقيقة ظهرت من بين ستائر الباب الخملية صبية ترتدي أثواباً من الحرير الأبيض الناعم ومشت نحوي ببطء ، فوقفت ووقف الشيخ قائلاً : هذه ابنتي سلمى . وبعد أن لفظ اسمي شفعه بقوله : ان ذلك الصديق القديم الذي حجبتة عني الأيام قد عادت فأبانتة لي بشخص ابنه ، فأنا أراه الآن ولا أراه . فتقدمت الصبية إلي وحدقت إلى عيني كأنها تريد أن تستنطقها عن حقيقة امري وتعلم منها أسباب مجيئي إلى ذلك المكان ، ثم اخذت يدي بيد تضارع زنبقة الحقل بياضاً ونعومة ، فأحسست عند ملامسة الأكف بماطفسة غريبة جديدة اشبه شيء بالفكر الشعري عند ابتداء تكوينه في نخيلة الكاتب .

جلسنا جميعاً ساكتين كأن سلمى قد ادخلت معها إلى تلك الغرفة روحاً علوية توغز الصمت والتهيب ، وكأنها شعرت بذلك فالتفتت نحوي وقالت مبتسمة : كثيراً ما حدثني

والذي عن ابيك معيداً على مسمي حكايات شبابها ، فان كان والدك قد اسمك تلك الوقائع فلا يكون هذا اللقاء هو الأول بيننا .

فسر الشيخ بكلمات ابلته وانبسطت ملامحه ثم قال : ان سلمى روحية الميول والمذاهب ، فهي ترى جميع الأشياء ساجدة في عالم النفس .

وهكذا عاد فارس كرامه الى عاداتي باهتمام كلي ورقة متناهية كأنه وجد في سرّاً سحريراً يرجعه على اجنحة الذكرى الى ربيع ايامه الغابرة .

كان ذلك الشيخ يحدق اليّ مسترجعاً اشباح شبابه وانا انامله حالماً بمستقبلي ، كان ينظر اليّ مثلما تخيم اغصان الشجرة العالية المملوءة بآتي الفصول فوق غرسة صغيرة مفعمة بعزم هاجع وحياة عمياء . شجرة مسنة راسخة الأعراق قد اختبرت صيف العمر وشتاءه ووقفت امام عواصف الدهر والنوائه ، وغرسة ضعيفة لينة لم ترّ غير الربيع ولم ترتعش إلا بمرور نسيم الفجر .

امما سلمى فكانت ساكنة تنظر الي نارة وطوراً إلى ابيها كأنها تقرأ في وجهينا اول فصل من رواية الحياة وآخر فصل منها .

قضى ذلك النهار متنهداً انفاسه بين تلك الحدائق والبساتين وغابت الشمس تاركة خيال قبلة صفراء على قمم لبنان المتعالية قبالة ذلك المنزل وفارس كرامه يتلو عليّ أخباره فيذهلني وانا اترنم امامه بأغاني شبيبي فاطربه ، وسلمى



جالسة بقرب تلك النافذة تنظر إلينا بعينها الحزینتین ولا تتحرك وتسمع أحاديثنا ولا تتكلم كأنها عرفت ان للجمال لغة سماوية تترفع عن الاصوات والمقاطع التي تحدثها الشفاه والألسنة ، لغة خالدة تضم إليها جميع انغام البشر وتجعلها شعوراً صامتاً مثلما تجذب البعيرة الهادئة أغاني السواقي الى أعماقها وتجعلها سكوتاً أبدياً . ان الجمال سر تفهمه أرواحنا وتفرح به وتنمو بتأثيراته ، أما أفكارنا فتقف أمامه ختارة محاولة تمحيده وتجسيده بالألفاظ ولكنها لا تستطيع . هو سيال خاف عن العين يتموج بين عواطف الناظر وحقيقة المنظور . الجمال الحقيقي هو أشعة تنبعث من قدس أقداس النفس وتثير خارج الجسد مثلما تنبتق الحياة من أعماق النواة وتكسب الزهرة لونها وعطراً - هو تقام كلي بين الرجل والمرأة يتم بلحظة ، وبلحظة يولد ذلك الميل المترفع عن جميع الميول - ذلك الانعطاف الروحي الذي ندعوه حباً ، فهل فهمت روحي روح سلمي في عشية ذلك النهار فجعلني التقام أراها أجمل امرأة امام الشمس ام هي سكرة الشيبية التي تجعلنا فتخيل رسوماً واشباحاً لا حقيقة لها؟ هل اعنتني الفتوة فتوهمت الأشعة في عيني سلمي والحلاوة في ثمرها والرقعة في قدما ام هي تلك الأشعة وتلك الحلاوة وتلك الرقعة التي فتحت عيني لتربني أفراح الحب وأحزانه ؟ لا أدري ولكنني أعلم انني شعرت بعاطفة لم أشعر بها قبل تلك الساعة ، عاطفة جديدة تمايلت حول قلبي بهدوء يشابه رفرقة الروح على وجه القمر قبل ان تبتدىء الدهور . ومن تلك العاطفة قد تولدت سعادي

وتعاسني مثلما ظهرت وتناسخت الكائنات بإرادة ذلك الروح .  
 هكذا انقضت تلك الساعة التي جمعتني بسلمى لأول مرة ،  
 وهكذا شاءت السماء واعتقتني على حين غفلة من عبودية  
 الحيرة والهدائة لتسيرني حرّاً في موكب المحبة ، فالمحبة هي  
 الحرية الوحيدة في هذا العالم لأنها ترفع النفس إلى مقام سام  
 لا تبلقه شرائع البشر وتقاليدهم ولا تسوده نوااميس الطبيعة  
 وأحكامها .

ولما وقفت للانصراف اقترب مني فارس كرامه وقال  
 بصوت تعانقه رنة الاخلاص : الآن وقد عرفت الطريق الى  
 هذا المنزل يجب أن تأتي اليه شاعراً بالثقة التي تفودك إلى بيت  
 أبيك وأن تحسبني وسلمى كوالد وأخت لك - اليس كذلك  
 يا سلمى ؟

فحنت سلمى رأسها إيجاباً ثم نظرت إليّ نظرة غريب  
 ضائع وجد رقيقاً يعرفه .

ان تلك الكلمات التي قالها لي فارس كرامه هي النعمة  
 الأولى التي أوقفتني بجانب ابنته أمام عرش المحبة هي استهلال  
 الأغنية السهاوية، التي انتهت بالنسب والرتاء . هي القوة التي  
 شجعت روحينا فاقتربنا من النور والنار . هي الإناء الذي  
 شربنا فيه الكوثر والملقم .

وخرجت فشيوعي الشيخ الى اطراف الحديقة ، فودعتها  
 وقلبي يخفق في داخلي مثلما ترتمش شفتا العطشان بلامسة حافة  
 الكأس .

## الشعلة البيضاء



وانقضى نيسان وأنا أزور منزل فارس كرامه وألتقي  
وسلى وأجلس قبالتها في تلك الحديقة متأملاً محاسنها ، معجباً  
بمواهبها، مصنياً لسكينة كآبتها ، شاعراً بوجود أيدٍ خفية  
تجتذبنني إليها . فكل زيارة كانت تبين لي معنىً جديداً من  
معاني جمالها وسراً علوياً من أسرار روحها حتى أصبحت أمام  
عيني كتاباً أقرأ سطورَه وأستظهر آياته وأترنم بنغمته ولا  
استطيع الوصول الى نهايته .

ان المرأة التي تمنحها الالهة جمال النفس مشفوعاً بجمال الجسد  
هي حقيقة ظاهرة غامضة نفهمها بالمحبة ونفهمها بالظهور ، وعندما  
نحاول وصفها بالكلام تختفي عن بصائرنا وراء خباب الحيرة  
والالتباس .

وسلى كرامه كانت جميلة النفس والجسد ، فكيف أصفها  
لمن لا يعرفها ؟ هل يستطيع الجالس في ظل أجنحة الموت أن  
يستحضر تغريدة البليل ، وهمس الوردة ، وتنهيدة الغدير ؟  
أيقدر الأسير المثلث بالقيود ان يلاحق هبوب نسبات الفجر ؟

ولكن أليس السكوت أصعب من الكلام ؟ وهل يمنعني التهيّب  
عن إظهار تخيال من أخيلة سلمى بالألفاظ الواهية اذا كنت  
لا تستطيع أن أرسم حقيقتها بخطوط من الذهب ؟ إن الجائع  
السائر في الصحراء لا يأبى أكل الخبز اليابس إذا كانت السماء  
لا تمطره المن والسوى .

كانت سلمى نجيلة الجسم تظهر بملابسها البيضاء الحريوية  
كأشعة قمر دخلت من النافذة . وكانت حركاتها بطيئة متوازنة  
أشبه شيء بمقاطع الألحان الاصفهانية ، وصوتها منخفضاً  
حلوّاً تقطعه التنهدات ، فينسكب من بين شفثيها الفرمزيتين مثلما  
تتساقط قطرات الندى عن تيجان الزهور بمرور موجات  
الهواء . . ووجهها - ومن يا ترى يستطيع أن يصف وجه  
سلمى كرامه ؟ بأية ألفاظ تقدر أن تصور وجهاً حزيناً هادئاً  
محجوباً وليس محجوباً بنعاب من الاصفار الشفاف ؟ بأية لغة  
تقدر أن تتكلم عن ملامح تعلن في كل دقيقة سرّاً من أسرار  
النفس وتذكر الناظرين اليها بعالم روحي بعيد عن هذا العالم ا

ان الجمال في وجه سلمى لم يكن منطبقاً على المقاييس التي  
وضعها البشر للجمال ، بل كان غريباً كاللحم او كالرؤيا او  
كفكر علوي لا يقاس ولا يحد ولا ينسخ بريشة المصور ، ولا  
يتجسم برخام الحفار . جمال سلمى لم يكن في شعرها الذهبي  
بل في هالة الطهر المحيطة به . ولم يكن في عينيها الكبيرتين  
بل في النور المنبعث منها . ولا في شفثيها الورديتين بل في

الحلاوة السائلة عليها . ولا في عنقها العاجي بل في كيفية  
 المنحنائه قليلا إلى الأمام . جمال سلى لم يكن في كمال جسدها  
 بل في نبالة روحها الشبيهة بشعلة بيضاء متقدة سابحة بين الأرض  
 واللا نهاية . جمال سلى كان نوعاً من ذلك النبوغ الشعري الذي  
 نشاهد اشباحه في القصائد السامية والرسوم والانغام الخالدة .  
 وأصحاب النبوغ تعساء مها تسامت أرواحهم تظل مكتنفة  
 بخلاف من الدموع .

وكانت سلى كثيرة التفكير قليلة الكلام ، لكن سكوتها  
 كان موسيقياً ينتقل بجليسا إلى مساح الأحلام البعيدة ،  
 ويجعله يصفي لنبضات قلبه ، ويرى أخيلة افكاره وعواطفه  
 منتصبه أمام عينيه .

أما الصفة التي كانت تعانق مزايا سلى وتساور أخلاقها  
 فهي الكتابة العميقة الجارحة ، فالكتابة كانت وشاحاً معنوياً  
 ترتديه فتزيد محاسن جسدها هيبية وغرابية ، وتظهر أشعة  
 نفسها من خلال خيوطه كخطوط شجرة مزهرة من وراء  
 ضباب الصباح . وقد أوجدت الكتابة بين روحي وروح سلى  
 صلة المشابهة ، فكان كلاً يرى في وجه الثاني ما يشعر به قلبه  
 ويسمع بصوته صدى مخبآت صدره ، فكان الآلة قد جعلت  
 كل واحد مننا نصفاً للآخر يلتصق به بالظهر فيصير انساناً  
 كاملاً ، وينفصل عنه فيشعر بنقص موجه في روحه .

إن النفس الحزينة المتسائلة تجد راحة بانضمامها إلى نفس

أخرى تماثلها بالشعور وتشاركها بالاحساس مثلما يستأنس  
الغريب بالغريب في أرض بعيدة عن وطنها - فالقلوب التي  
تدنياها أوجاع الكتابة بعضها من بعض لا تفرقها بهجة الأفراح  
وبهرجتها . فرابطة الحزن أقوى في النفوس من روابط الفبطة  
والسرور . والحب الذي تغسله الميون بدموعها يظل طاهراً  
وجميلاً وخالداً .



## العاصفة



وبعد أيام دعاني فارس كرامه إلى تناول العشاء في منزله،  
فذهبت ونفسي جائعة إلى ذلك الخبز العلوي الذي وضعت  
السياء بين يدي سلمي، ذلك الخبز الروحي الذي نلتهمه بأفواه  
أفئدتنا فنزداد جوعاً ، ذلك الخبز السعري الذي ذاق طعمه  
قيس العربي ودانتي الطلياني وسافو اليونانية فالتهبت أحشاؤم  
وذابت قلوبهم ، ذلك الخبز الذي عبثته الآلهة بجلاوة القبل  
ومرارة الدموع وأهدته مأكلا للنفوس الحساسة المستيقظة  
لثة يحا بطعمه وتمذيها بتأثيره .

ولما بلغت المنزل وجدت سلمي جالسة على مقعد خشبي  
في زاوية من الحديقة وقد أسندت رأسها إلى عمد شجرة فبان  
بشوبها الأبيض كواحدة من عرائس الخيال تخفر ذلك المكان ،  
فدنوت منها صامتاً وجلست بقربها جلوس بجوسي متهيبا أمام  
النار المقدسة ، ولما حاولت الكلام وجدت لساني منعقداً  
وشغيقاً جامدتين فاستأنست بالسكوت ، لأن الشعور العميق  
غير المتنامي يفقد شيئاً من خاصته المعنوية عندما يتجسم  
بالألفاظ المحدودة ، ولكنني شعرت بأن سلمي كانت تسمع في

السكينة مناجاة قلبي المتواصلة وتشاهد في عيني أشباح نفسي المرتعشة .

وبعد هنية خرج فارس كرامه الى الحديقة ومشى نحونا مرحباً بي كمادته باسطاً يده إليّ كأنه يريد أن يبارك بها ذلك السر الحفي الذي يربط وروحي بروح ابنته ، ثم قال مبتسماً : هلّا يا ولديّ الى المشاء فالطعام يلتظرتنا . فقمنا وتبعناه وسلى تنظر إلي من وراء أجفان مكعولة بالرقعة والانعطاف كأن لفظه «يا ولديّ» قد أيقظت في داخلها شعوراً جديداً عذباً يكتنف محبتها لي مثلما تحتضن الأم طفلها .

جلسنا الى المائدة نأكل ونشرب وتتحدث - جلسنا في تلك الغرفة تتلذذ بألوان الطعام الشبية وأنواع الخور الممتعة وأرواحنا تسبح على غير معرفة منا في عالم بعيد عن هذا العالم وتعلم بما في المستقبل وتتأهب للوقوف أمام مخاوفه وأهواله . ثلاثة أشخاص تختلف افكارهم باختلاف مقاصد من الحياة وتتفق سرائرم باتفاق قلوبهم بالمودة والحببة ، ثلاثة من الضعفاء الأبرياء يشعرون كثيراً ويعرفون قليلاً . وهذه هي المأساة المستتبة على مسرح النفس . شيخ جليل شريف يحب ابنته ولا يحفل بغير سعادتها - وصبية في العشرين من عمرها ترى المستقبل قريباً بعيداً وتحقق اليه لترى ما ينبغي لها من الفبطة والشقاء - وقتى كثير الأحلام والهواجس لم يذق بعد خمر الحياة ولا خلها يحرك جناحيه ليطير ساجحاً في فضاء الحبة والمعرفة ولكنه لا يستطيع



النهوض لضعفه . ثلاثة جالسون حول مائدة انيقة في منزل منفرد عن المدينة تخيم عليه سكينه الدجى وتحديق اليه عيون السماء ، ثلاثة يأكلون ويشربون وفي اعماق صحوهم وكؤوسهم قد اخفى القدر المرارة والاشواك .

ولم نلته من العشاء حتى دخلت علينا احدى الخاديمات وخاطبت فارس كرامه قائلة : في الباب رجل يطلب مقابلتك يا سيدي .

فسألها : من هو هذا الرجل ؟ فأجابت : اظنه خادم المطران يا سيدي . فسكت دقيقة وحديق إلى عيني ابتته نظير نبي ينتظر الى وجه السماء ليرى ما تخبئه من الأسرار ، ثم التفت نحو الخادمة وقال : دعيه يدخل .

فعدت الخادمة ، وبعد هنيهة ظهر رجل بألواب مزر كثة وشارب معقوف الطرفين ، فسلم منحنيا وخاطب فارس كرامه قائلا : قد بعثني سيادة المطران بمركبته الخصوصية لاطلب اليك ان تتكرم بالذهاب اليه ، فهو يريد أن يباحثك بأمر ذات أهمية .

فانتصب الشيخ وقد تغيرت ملامحه وانحجبت بشاشة وجهه وراء نقاب من التأمل والتفكير ، ثم اقترب مني وقال بصوت تساوره الرقة والحلاوة : أرجو أن اعود والفاك مهنا ، فسلمى ستجد بك مؤنسا يبعد بأعاديشه وحشة الليل ، ويزيل بأفغام نفسه تأثير الوحدة والانفراد . ثم التفت نحو ابتته وزاد مبتسما : اليس كذلك يا سلمي ؟

فحنت الصبية رأسها وقد توردت وجنتاها قليلاً ،  
وبصوت يضارع نغمة الناي رقة قالت : سوف اجهد النفس  
لكي أجعل ضيفنا مسروراً يا والدي .

وخرج الشيخ مصحوباً بخادم المطران وظلت سلمى واقفة  
تنظر من النافذة نحو الطريق حتى اختفت المركبة عن بصرها  
وراء ستائر الظلام واضمحل ارتجاج الدواليب بتباعد المسافة  
وقشرب السكون حرققة سنابك الخيل ، ثم جلست قباليقي  
على مقعد موشى بنسيج من الحرير الأخضر فبانت بأثوابها  
الناصعة كزنبقة لوت قامتها نسات الصباح على بساط من  
الأعشاب .

كذا شامت السهائم فخلوت بسلمى ليلاً في منزل منفرد  
تخفزه الأشجار ، وقغمرة السكينة ، وتسير في جوانبه أخيلة  
الحب والطهر والجمال .

ومرت دقائق وكلانا صامت حائر مفكر يترقب الآخر  
ليبدأ بالكلام . ولكن هل هو الكلام الذي يحدث التفاهم  
بين الأرواح المتحابة ؟ هل هي الأصوات والمقاطع الخارجة  
من الشفاه والألسنة التي تقرب بين القلوب والعقول ؟ أفلا  
يوجد شيء أسمى مما قلده الأفواه وأطهر مما تهتز به أوتار  
الحناجر ؟ أليست هي السكينة التي تحمل شعاع النفس إلى  
النفس ، وتنقل همس القلب إلى القلب ؟ أليست هي السكينة  
التي تفصلنا عن ذواتنا فلسبح في فضاء الروح غير المهدد  
مقترنين من الملا الأعلى ، شاعرين بأن أجسادنا لا تفوق

السجون الضيقة ، وهذا العالم لا يمتاز عن المنفى البعيد ؟  
ونظرت سلمى إلي وقد باحت أجفانها بسرائر نفسها ثم  
قالت بهدوء سحري : تعال نخرج إلى الحديقة ونجلس بين  
الأشجار لنرى القمر طالماً من وراء الجبل .

فوقفت مطيعاً وقلت بمანعاً : أليس الأفضل أن نبقى هنا  
يا سلمى حتى يطلع القمر وينير الحديقة ؟ أما الآن فالظلام  
يجبب الأشجار والأزهار فلا نستطيع أن نرى شيئاً .  
فأجابت : إذا حجب الظلام الأشجار والرياحين عن العين  
فالظلام لا يجبب الحب عن النفس .

قالت هذه الكلمات بلهجة غريبة ، ثم حوّلت عينها  
ونظرت نحو النافذة ، فبقيت أنا صامتاً مفكراً بكلماتها  
مصوراً لكل مقطع معنى ، راسماً لكل معنى حقيقة ، ثم  
عادت فحدقت إلي كأنها ندمت على ما قسالت فحاولت  
استرجاع كلماتها من أذني بسحر أجفانها . ولكن سحر تلك  
الأجفان لم يسترجع تلك الألفاظ إلا ليعيدها إلى أعماق صدري  
أكثر وضوحاً وأشد تأثيراً وليبقها هناك ملتصقة بقلبي  
متموجة مع عواطفي إلى آخر الحياة

كل شي عظيم وجميل في هذا العالم يتولد من فكر واحد  
أو من حاسة واحدة في داخل الانسان . كل ما نراه اليوم من  
أعمال الأجيال الفائرة كان قبل ظهوره فكراً خفياً في عاقلة  
رجل أو عاطفة لطيفة في صدر امرأة ... الثورات الهائلة

التي أجرت الدماء كالسواقي وجعلت الحرية تعبد كالألهة كانت  
فكراً خيالياً مرتعشاً بين تلافيف دماغ رجل فرد عائش بين  
ألوف من الرجال . والحروب الموجعة السقي ثلت العروش  
وخربت الممالك كانت خاطراً تتايل في رأس رجل واحد .  
والتعاليم السامية السقي غيرت مسير الحياة البشرية كانت ميلاً  
شعرياً في نفس رجل واحد منفصل بنبوغه عن محيطه .  
فكر واحد أقام الأهرام وعاطفة واحدة خربت تروادة  
وخاطر واحد أوجد مجسد الإسلام وكلمة واحدة أحرقت  
مكتبة الاسكندرية .

فكر واحد يحيئك في سكينة الليل يسير بك إلى المجد  
أو إلى الجنون . نظرة واحدة من أطراف أجفان امرأة  
تجعلك أسعد الناس أو أتعسهم . كلمة واحدة تخرج من بين  
شفتي رجل تصيرك غنياً بعد الفقر أو فقيراً بعد الغنى ...  
كلمة واحدة لفظتها سلمى كرامه في تلك الليلة الهادئة أوقفتني  
بين ماضي ومستقبلي وقوف سفينة بين لجة البحار وطبقات  
الفضاء . كلمة واحدة معنوية قد أيقظتني من سبات الهداية  
والخسار وسارت بأيامي على طريق جديدة إلى مسارح الحب  
حيث الحياة والموت .

خرجنا إلى الحديقة وسرنا بين الأشجار شاعرين بأصابع  
النسيم الخفية تلامس وجهينا وقامات الأزهار والأعشاب اللدنة  
تتايل بين أقدامنا ، حق إذا ما بلغنا شجرة الياسمين جلسنا  
صامتين على ذلك المقعد الخشي نسمع تنفس الطبيعة

النائمة ونكشف بحلاوة التنهد خفايا صدرينا أمام عيون السماء  
الناظرة إلينا من وراء أزرقاق السماء .

وطلع القمر إذ ذاك من وراء صئين وغمر بنوره تلك  
الروابي والشواطىء ، فظهرت القرى على اكتاف الأودية كأنها  
قد انبثقت من اللاشيء ، وبان لبنان جميعه من تحت تلك الأشعة  
الفضية كأنه فتى متكىء على ساعده تحت نقاب لطيف يخفي  
أعضائه ولا يخفيها .

لبنان عند شعراء الغرب مكان خيالي قد اضمحلت حقيقته  
بذهاب داود وسليمان والأنبياء مثلما انجسبت جنة عدن بسقوط  
آدم وحواء ، هو لفظة شعرية لا اسم جبل — لفظة ترمز عن  
عاطفة في النفس وتستحضر إلى الفكر رسوم غابات من الأرز  
يفوح منها المطر والبخور ، وأبراج من النحاس والرغام تتعالى  
بالمجد والعظمة ، واسراب من الغزلان تتهادى بين الطلول  
والأودية . وأنا قد رأيت لبنان في تلك الليلة مثل فكر  
شعري خيالي منتصب كالحلم بين اليقظة واليقظة . كذا تتغير  
الأشياء أمام أعيننا بتغير عواطفنا ، وهكذا تتوهم الأشياء  
متشحة بالسحر والجمال عندما لا يكون السحر والجمال إلا في  
نفوسنا .

والتفتت إلي سلى وقد غمر نور القمر وجهها وعنقها  
ومعصمها فبانت كتمثال من العاج تحتها أصابع متعبد لمشاروت  
ربة الحسن والمحبة : لماذا لا تتكلم ؟ لماذا لا تحدثني عن ماضي  
حياتك ؟

فنظرت إلى عينيها المنيرتين ، ومثل أخرس فاجأ النطق  
شفتيه أجبتها قائلاً : ألم تسمعي متكلماً مذ جئت إلى هذا  
المكان ؟ أو لم تسمعي كل ما قلته مذ خرجنا إلى هذه الحديقة ؟  
إن نفسك التي تسمع همس الأزهار وأغاني السكينة تستطيع أن  
تسمع صراخ روعي وضجيج قلبي .

فحجبت وجهها بيديها ثم قالت بصوت متقطع : قد  
سمعتك ... نعم سمعتك . سمعت صوتاً صارخاً خارجاً من  
احشاء الليل وضجة هائلة منبثقة من قلب النهار .

فقلت بسرعة وقد نسيت ماضي حياتي ونسيت كياني  
ونسيت كل شيء ولم أعد أعرف سوى سلمى ولا أشعر بشيء  
وجودها : وأنا قد سمعتك يا سلمى - سمعت نعمة عظيمة  
حبية جارحة تتموج لها دقائق الفضاء وتهتز بارتعاشها أسس  
الأرض .

فأغمضت سلمى أجفانها وظهر على شفثيها القرمزيتين خيال  
ابتسامة محزنة ثم همست قائلة : قد عرفت الآن انه يوجد  
شيء أعلى من السماء وأعمق من البحر وأقوى من الحياة والموت  
والزمن . وقد عرفت الآن ما لم أكن اعرفه بالأمس ولا  
أحلم به .

منذ تلك الدقيقة صارت سلمى كرامه أعز من الصديق  
وأقرب من الأخت وأحب من الحبيبة . صارت فكراً  
سامياً يتبع عاقلتي وعاطفة رقيقة تكتنف قلبي وحداً جميلاً  
يجور نفسي .

ما أجهل الناس الذين يتوهمون ان الهبة تتولد بالمعاشرة الطويلة والمرافقة المستمرة . ان الهبة الحقيقية هي ابنة التفاهم الروحي وإن لم يتم هذا التفاهم بلحظة واحدة لا يتم بعسام ولا يجيل كامل .

ورفعت سلمي رأسها ونظرت نحو الأفق البعيد حيث تلتقي خطوط صنين بأذيال الفضاء ، ثم قالت : لقد كنت لي بالأمس مثل أخ أقرب منه مطمئنة وأجلس بجانبه في ظلال والدي ، أما الآن فقد شعرت بوجود شيء أقوى وأعذب من العلاقة الأخوية ، قد شعرت بعاطفة غريبة مجردة عن كل علاقة . عاطفة قوية مخيفة لذيدة تملأ قلبي حزناً وفرحاً .

فأجبتها : أليست هذه العاطفة التي نخافها ونرتجف لمرورها في صدورنا جزءاً من الناموس الكلي الذي يسير القمر حول الأرض ، والأرض حول الشمس ، والشمس وما يحيط بها حول الله ؟

فوضعت يدها على رأسي وغرست أصابعها بشعري وقد تهلل وجهها وترقرقت الدموع في عينيها مثلما تلمع قطرات الندى على أطراف أوراق النرجس ، ثم قالت : من من البشر يصدق حكايتنا ؟ من منهم يصدق اننا في الساعة التي تجيء بسين غروب الشمس وطلوع القمر قد قطعنا العقبات واجتازنا المعابر الكائنة بين الشك واليقين من منهم يعتقد أن نيسان الذي جمعنا لأول مرة هو الشهر الذي أوقفنا في قدس أقداس الحياة ؟

قالت هذه الكلمات ويدها ما برحت على رأسي المنحني ،  
ولو تخيرت في تلك الدقيقة لما فضلت تيجان الملوك وأكليل  
الفار على تلك اليد الحريرية المتلاعبة بشعري. ثم أجبتها قائلاً :  
ان البشر لا يصدقون حكايتنا لأنهم لا يملكون بأن المحبة هي  
الزهرة الوحيدة التي تنبت وتنمو بغير معاونة الفصول ،  
ولكن هل هو نيسان الذي جمعنا لأول مرة ؟ وهل هي هذه  
الساعة التي أوقفتنا في قدس أقداس الحياة ؟ أما جمعت روحينا  
قبضة الله قبل ان تصيرنا الولادة أسيري الايام والليالي ؟ ان  
حياة الانسان يا سلمى لا تبتدىء في الرحم كما انها لا تنتهي  
أمام القبر ، وهذا الفضاء الواسع المملوء بأشعة القمر  
والكواكب لا يخلو من الأرواح المتعانقة بالحنة والنفوس  
المتضامنة بالتفاهم .

ورفعت سلمى يدها بلطف عن رأسي تاركة بين مغارس  
الشمر توجات كهربائية يتلاعب بها نسيم الليل فيزيدهم عوا  
وحراكاً ، فأخذت تلك اليد براحتي نظير متمبذ يتبرك بلثم  
المذبح ووضعتها على شفتي المتتهبتين وقبلتها قبلة طويلة عميقة  
خرساء تذيب بحرارتها كل ما في القلب البشري من الاحساس  
وقنبة يعذوبتها كل ما في النفس الالهية من الطهر .

ومرت علينا سابعة كل دقيقة منها عام شغف ومحبة ،  
تساورتنا سكينه الليل وتغمرنا أشعة القمر وتحيط بنا الأشجار  
والرياحين ، حتى إذا ما بلغنا تلك الحالة التي ينسى فيها



الانسان كل شيء سوى حقيقة الحب سمعنا وقع حوافر وهدير  
 مركبة تقارب منا مسرعة ، فانتبهنا من تلك الغيبوبة اللذيذة  
 وهبطت بنا اليقظة من عالم الاحلام إلى هذا العالم الواقف بمسيرة  
 بين الحيرة والشقاء ، فعرفنا ان الوالد الشيخ قد عاد من دار  
 المطران فسرنا بين الاشجار ننتظر وصوله . وبلغت المركبة  
 مدخل الحديقة فترجل فارس كرامه وسار نحونا منعني الرأس  
 بطيء الحركة ، ونظير متعب رازح تحت حمل ثقيل تقدم نحو  
 سلمى ووضع كلتا يديه على كتفيها وحدق الى وجهها طويلاً  
 كأنه يخاف ان تغيب صورتها عن عينيه الضئيلتين ، ثم  
 انسكبت دموعه على وجنتيه المتجعدين وارتجفت شفتاه  
 بابتسامة حزينة وقال بصوت مخنوق : عما قريب يا سلمى ، عما  
 قريب تخرجين من بين ذراعي والدك إلى ذراعي رجل آخر .  
 عما قريب تسير بك سنة الله من هذا المنزل المنفرد إلى ساحة  
 العالم الواسعة فتصبح هذه الحديقة مشتاقة إلى وطء قدميك  
 ويصير والدك غريباً عنك . لقد لفظ القدر كلمته يا سلمى ،  
 فلتباركك السماء وتحرسك ا

سمعت سلمى هذه الكلمات فتغيرت ملاحظها وجدت عينها  
 كأنها رأت شبح الموت منتصباً أمامها ، ثم شهقت وتقلبت  
 متوجعة كمصفور رماه الصياد فهبط على الحضيض مرتجفياً  
 بالامه ، وبصوت تقطعه الغصات العميقة صرخت قائلة : ماذا  
 تقول ؟ ماذا تعني ؟ إلى أين تريد أن تبعث بي ؟ .

ثم شخصت به كأنها تريد أن تزيل بنظراتها الغلاف عن مخبات صدره . وبعد دقيقة مثقلة بعوامل ذلك السكون الشبيه بصراخ القبور قالت متأوهة : قد فهمت الآن ... قد عرفت كل شيء ... ان المطران قد فرغ من حبك قضبان القفص الذي أعده لهذا الطائر المكسور الجناحين ، فهل هذه هي إرادتك يا والدي ؟ .

فلم يجيبها بغير التنهدات العميقة ، ثم أدخلها الدار وأشعة الحنو تنسكب من ملامحه المضطربة ، فبقيت أنا واقفاً بين الأشجار والحيرة تتلاعب بعواطفي مثلما تتلاعب العواصف بأوراق الخريف ، ثم تبعتهما الى القاعة . وكيفا أظهر بمظهر طفيلي يميل الى استطلاع الخصوصيات أخذت يد الشيخ مودعاً ونظرت الى سلمى نظرة غريقة تلف نحو نجم لامع في قبة الفلك ، ثم خرجت دون ان يشعرها بخروجي ، ولكنني ما بلغت أطراف الحديقة حتى سمعت صوت الشيخ منادياً ، فالتفت واذا به يتبعني ، فعدت الى لقائه ، ولما دنوت منه أمسك بيدي وقال بصوت مرتعش : ساعني يا ابني فقد جعلت ختام ليلتك محتثفاً بالدموع ، ولكنك سوف تجيء الي دائماً ، أليس كذلك ؟ ألا تزورني عندما يصير هذا المكان خالياً إلا من الشيخوخة الحزينة ؟ ان الشباب الغض لا يستأنس بالشيخوخة الذابلة كما ان الصباح لا يلتقي بالمساء ، أما أنت فسوف تجيء إلي لتذكرني بأيام الصبا التي صرفتها بقرب أبيك وتميد على مسمعي أخبار

الحياة التي لم تعد تحسبني من أبنائها ، اليس كذلك ؟ ألا تزورني عندما تذهب سلمى وأصبح وحيداً منفرداً في هذا المنزل البعيد عن المنازل ؟

لفظ الكلمات الأخيرة بصوت منخفض متقطع ، ولما أخذت يده وهزتها صامتاً أحسست بقطرات من الدموع السخينة قد تساقطت على يدي من جفانه ، فارتعشت نفسي في داخلي وشمرت نحوه بماطفة بنوثة عذبة محزنة تتمايل بين ضلوعي وتتصاعد كاللهاث الى شفقي ثم تعود كالنصات الى أعماق قلبي . ولما رفعت رأسي ورأيت ان دموعه قد استدرت الدموع من أجناني انحنى قليلاً ولمس بشفتيه المرتجفتين أعلى جبھتي ثم قال محولاً وجهه نحو باب المنزل : مساء الخير ... مساء الخير يا ابني .

ان دموعه واحدة تتلمع على وجنة شيخ متجمدة لهي أشد تأثيراً في النفس من كل ما تهرفه أجنان الفتيان .

ان دموع الشباب الغزيرة هي بما يفيض من جوانب القلوب المترعة ، اما دموع الشيوخ فهي فضلات العمر تنسكب من الأحداق ، هي بقية الحياة في الأجساد الواهنة . الدموع في أجنان الشيبية كقطرات الندى على اوراق الورد ، أما الدموع على وجنة الشيخوخة فأشبه بأوراق الخريف المصفرة التي تنثرها الرياح وتذريها عندما يقترب شتاء الحياة .

واختفى فارس كرامه وراء مصراعي الباب وخرجت أنا

من تلك الحديقة وصوت سلمي يتموج في أذنيّ ، وجالها يسير  
كالخيال أمام عينيّ ، ودموع والدها تجف ببطء على يديّ .  
خرجت من ذلك المكان خروج آدم من الفردوس ، ولكن  
حواء هذا القلب لم تكن يجاني لتجعل العالم كله فردوساً .  
خرجت شاعراً بأن تلك الليلة التي ولدت فيها ثانية هي الليلة  
التي لمحت فيها وجه الموت لأول مرة .

كذا تحيي الشمس الحقول بحرارتها ، وبحرارتها تميّتها .

## بحيرة النار



كل ما يفعله الانسان سرّاً في ظلمة الليل يظهره الانسان علناً في نور النهار . الكلمات التي تهمسها شفاهنا في السكينة تصير على غير معرفة منّا حديثاً عمومياً ، والأعمال التي نحاول اليوم إخفاءها في زوايا المنازل تتجسم غسداً وتلتصب في منعطفات الشوارع .

كذا أعلنت أشباح الدجى مقاصد المطران بولس غالب من اجتماعه بفارس كرامه ، وهكذا حملت دقائق الأثير أقواله وأحاديثه إلى احياء المدينة حتى بلغت مسمعي .

ما طلب المطران بولس غالب مقابلة فارس كرامه في تلك الليلة القمرية ليفاوضه بشؤون الفقراء والموزين أو يخبره بأمور الأرامل والأيتام ، بل أحضره بمركبته الخصوصية الفخمة ليطلب منه ابنته سلمى عروساً لابن أخيه منصور بك غالب .

كان فارس كرامه رجلاً غنياً ولم يكن له وارث سوى ابنته سلمى ، وقد اختارها المطران زوجة لابن أخيه ، لا

لجمال وجهها وثبالة روحها بل لأنها غنية موسرة تكفل بأموالها الطائلة مستقبل منصور بك وتساعد به بأملاتها الواسعة على إيجاد مقام رفيع بين الخاصة والاشراف .

ان رؤساء الدين في الشرق لا يكتفون بما يحصلون عليه أنفسهم من الجهد والسؤدد بل يفعلون كل ما في وسعهم ليجعلوا أنسابهم في مقدمة الشعب ومن المستبدين به والمستدرين قواه وأمواله . ان مجد الأمير ينتقل بالارث إلى ابنه البكر بعد موته ، أما مجد الرئيس الديني فينتقل بالعدوى إلى الأخوة وأبناء الاخوة في حياته . وهكذا يصبح الأسقف المسيحي والامام المسلم والكاهن البرهمي كأفاعي البحر التي تقبض على الفريسة بمقابض كثيرة وتتص دماها بأفواه عديدة .

عندما طلب المطران بولس يد سلمي من والدها لم يجبه ذلك الشيخ بغير السكوت العميق والدموع السخينة . وأي والد لا يشق عليه فراق ابنته حتى ولو كانت ذاهبة إلى بيت جاره أو إلى قصر ملك ؟ أي رجل لا ترتعش أعماق نفسه بالفصات عندما يفصله ناموس الطبيعة عن الابنة التي لاعبها طفلة وهذبها صبية ورافقها امرأة ؟ ان كآبة الوالدين لزواج الابنة يضارع فرحهما بزواج الابن ، لأن هذا يكسب العائلة عضواً جديداً أما ذاك فيسلبها عضواً قديماً . عزيزاً - أجاب الشيخ طلب المطران مضطراً والحنى أمام مشيئته قهراً عما في داخل نفسه من الممانعة ، وكان قد اجتمع بابن أخيه منصور بك وسمع الناس يتحدثون عنه

فعرف خشوته وطبعه والمخاطبات أخلاقه ، ولكن أي مسيحي  
 يقدر أن يقاوم أسقفاً في سوريا ويبقى محسوباً بين المؤمنين ،  
 أي رجل يخرج عن طاعة رئيس دينه في الشرق ويظل كريماً  
 بين الناس ؟ أتماندا العين سهماً ولا تفقأ أو تناضل اليد سيفاً  
 ولا تقطع ؟ وهب أنت ذلك الشيخ كان قادراً على مخالفة  
 المطران بولس والوقوف أمام مطامعه فهل تكون سمعة ابنته  
 في مامن من الظنون والتأويل ، وهل يظل اسمها نقياً من أوساخ  
 الشفاه والألسنة ؟ أو نيست جميع العناقيد العالية حامضة في  
 شرع بنات آوى ؟

هكذا قبض القدر على سلمى كرامه وقادها عبدة ذليلة  
 في موكب النساء الشرقيات التاعسات ، وهكذا سقطت تلك  
 الروح النبيلة بالحباتل بينما كانت تسبح لأول مرة على أجنحة  
 الحب البيضاء في فضاء تملأه أشعة القمر وتعطره رائحة  
 الأزاهر .

إن أموال الآباء تكون في أكثر المواطن مجلبة لشقاء البنين  
 تلك الخزانة الواسعة التي يملأها نشاط الوالد وحرص الأم  
 تنقلب حبوساً ضيقة مظلمة لنفوس الورثة . ذلك الإله العظيم  
 الذي يعبده الناس بشكل الدينار ينقلب شيطاناً غيفاً يعذب  
 النفوس ويميت القلوب . وسلمى كرامه هي كالكثيرات من  
 بنات جنسها اللواتي يذهبن ضحية ثروة الوالد وأمانى العريس .  
 فلو لم يكن فارس كرامه رجلاً غنياً لكانت سلمى اليوم حية  
 تفرح مثلنا بنور الشمس .

مرّ اسبوع وحب سلمى يجالسني في المساء منشداً على  
 مسمعي اغاني السعادة وينبهي عند الفجر ليريني معاني الحياة  
 وأسرار الكيان. حبّ علوي لا يعرف الحسد لأنه غني ، ولا  
 يوجع الجسد لأنه في داخل الروح . ميل قوي ينمّر النفس  
 بالقناعة . مجاعة عميقة تملأ القلب بالاكتهاء . عاطفة تولد  
 الشوق ولكنها لا تثيره . فتون جعلني أرى الأرض نعيماً  
 والمرحلاً جميلاً . فكنت أسير صباحاً في الحقول وأرى في  
 يقظة الطبيعة رمز الخلود ، وأجلس على شاطئ البحر وأسمع  
 من أمواجه أغاني الأبدية ، وأمشي في شوارع المدينة وأجد  
 في طلعات الماهرين وحركات المشتغلين محاسن الحياة وبهجة  
 العمران .

تلك أيام مضت كالأشباح واضمحلت كالضباب ولم يبق  
 لي منها سوى الذكرى الأليمة ، فالعين التي كنت أرى بها  
 جمال الربيع ويقظة الحقول لم تعد تحددني الى غير غضب  
 العواصف ويأس الشتاء . والأذن التي كنت أسمع بها أغنية  
 الأمواج لم تعد تصني لغير أنة الأعماق وعويل الهاوية. والنفس  
 التي كانت تقف متهيبه أمام نشاط البشر ومجد العمران لم تعد  
 تشعر بغير شقاء الفقر وتماسة الساقطين . فما أحلى أيام  
 الحب وما أعذب أحلامها وما أمرّ ليالي الحزن وما أكثر  
 مخاوفها !

وفي نهاية الأسبوع وقد سكرت نفسي بخمرة عواطفني سرت  
 مساء إلى منزل سلمى كرامه، ذلك الهيكل الذي أقامه الجمال



وقدسه الحب لتسجد فيه النفس مصلية ويركع القلب خاشعاً ،  
ولما بلغت ودخلت الى تلك الحديقة الهادئة أحسست بوجود  
قوة تستهويني وتستميلني وتبعدني عن هذا العالم وتدنيني ببطء  
إلى عالم سحري خال من العراك والجهاد ، ومثل متصوف  
يجذبته السماء إلى مسارح الرؤيا وجدتني سائراً بين تلك الأشجار  
المهتبكة والزهور المتعانقة ، حتى إذا ما اقتربت من باب  
الدار التفت وإذا بسلمى جالسة على ذلك المقعد بظلال شجرة  
الياسمين حيث جلسنا منذ أسبوع في تلك الليلة التي اختارتها  
الآلهة من بين الليالي وجعلتها بدء سعادتي وشغائي ، فدنوت  
منها صامتاً فلم تتحرك ولم تتكلم كأنها علمت بقدمي قبل  
قدومي ولما جلست بجانبها حدثت إلى عيني دقيقة وتهدت  
تنهدة طويلة عميقة ثم عادت فنظرت إلى الشفق البعيد حيث  
تمت أرائل الليل بأواخر النهار . وبعد هنيهة مملوءة بتلك  
السكينة السحرية التي تضم نفوسنا إلى مواكب الأرواح غير  
المنظورة ، حولت سلمى وجهها نحوي وأخذت يدي بيد  
مرتعة باردة وبصوت يشابه تأوه جائع لا يقوى على الكلام  
قالت :

انظر الى وجهي يا صديقي ، انظر الى وجهي جيداً وتأمله  
طويلاً واقراً فيسه كل ما تريد ان تفهمه مني بالكلام ...  
انظر الى وجهي يا حبيبي ... انظر جيداً يا أخي .  
فنظرت إلى وجهها ، نظرت طويلاً ، فرأيت تلك الاجفان التي  
كانت منذ أيام قليلة تبتمس كالشفاه وتتحرك كأجنحة

الشعرور قد غارت وجمدت واكتحلت بخيالات التوجع والأم، رأيت تلك البشرة التي كانت بالأمس مثل ثنايا الزنبقة البيضاء القرحة بقبلات الشمس، قد اصفرت وذبلت وتبرقعت بنقاب القنوط. رأيت الشفتين اللتين كانتا كزهرة اقاح تسيل عليها الخلاوة قد يبستا وصارتا كوردنين مرتجفتين أبقاهما الخريف على طرف الغصن. رأيت العنق الذي كان مرفوعاً كعمود العاج قد انحنى الى الأمام كأنه لم يعد قادراً على حمل ما يجول في تلافيف الرأس.

رأيت هذه الانقلابات الموجعة في ملامح سلسي، رأيتها جميعها ولكنها لم تكن في نظري الا كسحابة رقيقة توشح القمر فتزيد منظره حسناً وهيبته. ان الملامح التي تبيع أسرار الذات المعنوية تكسب الوجه جمالاً وملاحة مها كانت تلك الأسرار موجعة وأليمة. اما الوجوه التي لا تتكلم بصمتها عن غوامض النفس وخفاياها فلا تكون جميلة مها كانت متناسقة الخطوط متناسبة الاعضاء. إن الكؤوس لا تستميل شفاها حتى يشف بلورها عن لون الحجر. فسلى كرامه كانت في عشية ذلك النهار مثل كأس طافحة من خمرة علوية تتزج بدقائقها مرارة العيش بجلاوة النفس. كانت تمثل على غير معرفة منها حياة المرأة الشرقية التي لا تغادر منزل والدها المحبوب إلا لتضع عنقها تحت نير زوجها الحشن... ولا تترك ذراعي أمها الرؤوف إلا لتعيش في عبودية والدة زوجها القاسية.

وبقيت محذوقاً الى وجه سلمى مصنياً لأنفاسها المتقطعة صامتاً، مفكراً شاعراً متألماً معها ولها ، حتى أحسست ان الزمن قد وقف عن مسيره والوجود قد انحبس واضمحل ولم أعد أرى سوى عينين كبيرتين محدقتين الى اعماقي ، ولا أشعر بغير يد باردة ممتعة تضم يدي . ولم أفق من هذه الغيبوبة حتى سمعت سلمى تقول بهدوء: تعال نتحدث الآن يا صديقي . تعال نحاول تصوير المستقبل قبل ان يحمل علينا بمخاوفه واهواله . لقد ذهب والدي الى منزل الرجل الذي سيكون رفيقاً لي حتى القبر . قد ذهب الرجل الذي اختارته السماء سبباً لوجودي ليلتقي الرجل الذي انتقته الأرض سيداً على أيامي الآتية . ففي قلب هذه المدينة يجتمع الآن الشيخ الذي رافق شبيبتي بالشاب الذي سيرافق ما بقي لي من السنين ، وفي هذه الليلة يتفق الوالد والخطيب على يوم القران الذي سيكون قريباً منها بجملاه بعيداً ، فما أغرب هذه الساعة وما أشد تأثيرها ! في مثل هذه الليلة من الأسبوع الغابر . وفي ظلال هذه الياسمينه قد عانق الحب روحي لأول مرة ، بينما كان القدر يخط أول كلمة من حكاية مستقبلي في دار المطران بولس غالب . وفي هذه الساعة وقد جلس والدي وخطيبي ليضفرا إكليل زواجي ، أراك جالساً يجانبي وأشعر بنفسك متوجة حولي كطائر ظاميء يحوم مرفرفاً فوق ينبوع ماء يخفزه ثعبان جائع نحيف ، فما اعظم هذه الليلة وما اعظم اسرارها!

(٤) الاجنحة المتكسرة

فأجبتها وقد تخيلت القنوط شبحاً مظلماً قابضاً على عنق  
حبننا ليميته في طفوليته : سيظل هذا الطائر حائماً مرفرفاً  
فوق الينبوع حتى يرضيه العطش فيرديه او يقبض عليه الثعبان  
الخفيف فيمزقه ويلتهمه .

فقلت متأثرة وصوتها يرتجف كالأوتار الفضية : لا ، لا يا  
صديقي ، فليبق هذا الطائر حياً ، ليبقى هذا البلبل مقرداً  
حتى المساء ، حتى يفتي الربيع حتى يفتي العالم ، حتى  
تنتهي الدهور . لا تخرسه لأن صوته يحيني ، ولا توقف  
جناحيه لأن حفيفها يزيل الضباب عن قلبي .

فهمست متنهداً : الظمأ يقتله يا سلى والخوف يميته .

فأجابت والكلام يتدفق بسرعة من بين شفثيها  
المرتمشتين : ان ظمأ الروح اعظم من ارتواء المادة ، وخوف  
النفس أحب من طمانينة الجسد .. ولكن اسمع يا حبيبي ،  
اسمعي جيداً ، انا واقفة الآن في باب حياة جديدة لا أعرف  
عنها شيئاً . أنا مثل عمياء تتلمس بيدها الجدران مخافة  
السقوط . أنا جارية أنزلني مال والدي الى ساحة النخاسين  
فابتاعني رجل من بين الرجال . انا لا احب هذا الرجل لأنني  
اجله ، وانت تعلم ان المحبة والجهالة لا تلتقيان ، ولكنني سوف  
أعلم محبته . سوف أطيعه وأخدمه وأجعله سعيداً . سوف  
أهبه كل ما تقدر المرأة الضعيفة أن تهب الرجل القوي .  
أما أنت فلم تزل في ربيع النمر ، أمامك الحياة طريقاً واسعة

مفروشة الأزهار والرياحين . سوف تخرج إلى ساحة العالم حاملاً قلبك مشعلاً متقدماً . سوف تفكر بحرية وبحرية تتكلم وتعمل . سوف تكتب اسمك على وجه الحياة لأنك رجل . سوف تعيش سيداً ، لأن فاقة والدك لا تجعلك عبداً ، وأمواله لا تنزل بك إلى سوق النخاسين حيث تباع البنات وتشترى . سوف تقترن بالصبية التي تختارها نفسك من بين الصبايا فتسكنها صدرك قبل أن تسكنها منزلك ، وتشاركها بأفكارك قبل أن تساهمها الأيام والليالي .

وسكنت دقيقة كما تسرجع أنفاسها ، ثم زادت بصوت تتابعه النصات : ولكن أهنا تفرقنا سبل الحياة لتذهب بك إلى أعجاد الرجل وتسير بي إلى واجبات المرأة ؟ أهكذا ينقضني الجلم الجميل وتندثر الحقيقة العذبة ؟ أهكذا تبتلع اللجة نعمة الشجرور وتثر الرياح أوراق الوردة وتسحق الأقدام كأس الخمر ؟ أباطلا أوقفنا تلك الليلة أمام وجه القمر وباطلا ضمنا الروح في ظلال هذه الياسمينية ؟ هل تسرعنا بالصعود نحو الكواكب فكنت أجنحتنا وهبطت بنا إلى الهاوية ؟ هل فاجأنا الحب نائماً فاستيقظ غاضباً ليعاقبنا ، أم هيجت أنفاسنا نسمات الليل فانقلبت ريحاً شديدة لتمزقنا وتجرفنا كالغبار إلى أعماق الوادي ؟ لم نخالف وصية ولم ندق ثراً فكيف نخرج من هذه الجنة ؟ لم نتأمر ولم نتمرد فلماذا نهبط إلى الجحيم لا لا وألف لا ولا . إن اللحائق التي جمعنا هي أعظم من الأجيال ، والشعاع الذي أثار تفكيرنا هو أقوى

من الظلام ، فان فرقنا العاصفة على وجه هذا البحر الغضوب  
فالأمواج تجمعنا على ذلك الشاطئ الهاديء ، وان قتلنا هذه  
الحياة فذاك الموت يجيئنا .

ان قلب المرأة لا يتغير مع الزمن ولا يتحول مع الفصول  
قلب المرأة ينازع طويلا ولكنه لا يموت . قلب المرأة يشابه  
البرية التي يتخذها الإنسان ساحة لحروبه ومذابحه ، فهو يقتلع  
أشجارها ويحرق أعشابها ويلطخ صخورها بالدماء ويفرس  
تربتها بالعظام والجماجم ، ولكنها تبقى هادئة ساكنة مطمئنة  
ويظل فيها الربيع ربيعاً والخريف خريفاً الى نهاية الدهور . . .  
والآن قضي الأمر فماذا نفعل ؟ قل لي ماذا نفعل وكيف  
نفترق ومتى نلتقي ؟ هل نحسب الحب ضيفاً غريباً أتى به  
المساء وأبعده الصباح ؟ أمحسب هذه العاطفة النفسية حلماً  
أبانه الكرى ثم أخفته اليقظة ؟ أمحسب هذا الأسبوع ساعة  
سكر ما لبثت ان قضت بالصحو والانتباه ؟ . . ارفع رأسك  
لأرى عينيك يا حبيبي افتح شفئك لأسمع صوتك . تكلم ،  
اخبرني ، حدثني ، هل تذكرني بعد أن تفرق العاصفة سفيني  
أيامنا ؟ هل تسمع حفيف أجنحتي في سكينه الليل ؟ هل  
تشر بأنفاسي متموجة على وجهك وعنقك ؟ هل تصني  
لتهداتي متصاعدة بالتوجع منخفضة بالفصات ؟ وهل ترى  
خيالي قادماً مع خيالات الظلام مضمحلاً مع ضباب الصباح ؟  
قل لي يا حبيبي ، قل لي ماذا تكون لي بعد ان كنت نوراً  
لعيني ونعمة لأذني وجناحاً لروحي ، ماذا تكون ؟

فأجبتها وحبسات قلبي تذوب في عيني : سأكون لك  
يا سلمى مثلما تريدني ان أكون .

فقلت : أريدك أن تحبني . أريدك أن تحبني إلى نهاية  
أيامي . أريدك أن تحبني مثلما يحب الشاعر أفكاره المحزنة .  
أريدك أن تذكرني مثلما يذكر المسافر حوض ماء هاديء  
رأى فيه خيال وجهه قبل ان يشرب من مائه . وأريدك أن  
تذكرني مثلما تذكر الأم جنيناً مات في أحشائها قبل ان يرى  
النور . وأريدك أن تفكر بي مثلما يفكر الملك الرؤوف  
بسجين مات قبل أن يبلغه عفوه . أريدك أن تكون لي أخاً  
وصديقاً ورفيقاً . أريدك أن تزور والذي في وحدته وتعزبه  
في انفراده ، لأنني عما قريب سأتركه وأصير غريبة عنه .

فأجبتها : سأفعل كل ذلك يا سلمى . سوف أجعل روحي  
غلافاً لروحك ، وقلبي بيتاً لجمالك ؛، وصبري قبرا لأحزانك .  
سوف أحبك يا سلمى محبة الحقول للربيع . سوف أحيا بك  
حياة الأزاهر بجمرة الشمس . سوف أترنم باسمك مثلما يترنم  
الوادي بصدى رنين الأجراس المتمايلة فوق كنائس القرى .  
سوف أصغي لأحاديث نفسك مثلما تصغي الشواطئ لحكاية  
الأمواج ... سأذكرك يا سلمى مثلما يذكر الغريب المستوحش  
وطنه المحبوب ، والفقير الجائع مائدة الطعام الشهية . والملك  
المخلوع أيام عزه ومجده ، والأسير الكئيب ساعات الحرية  
والطمأنينة . سوف أفكر بك مثلما يفكر الزارع بأغمسار

السنايل وغسلة البيادر ، والراعي الصالح بالمروج الخضراء  
والمناهل العذبة .

كنت أنكلم وسلمى تنظر الى أعماق الليل وتتأوه بين الآونة  
والأخرى ، ونبضات قلبها تتسارع وتتاهل كأنها أمواج بحر بين  
صعود وهبوط . ثم قالت : غداً تصير الحقيقة خيالاً واليقظة  
حلماً ، فهل يكتفي المشتاق بعناق الخيال ويرتوي الظمآن  
من جداول الأحلام ؟

فأجبتها قائلاً : غداً يسير بك القدر إلى أحضان العائلة  
المملوءة بالراحة والهدوء ، ويسير بي إلى ساحة العالم حيث  
الجهاد والقتال . أنت الى منزل رجل يسعد يجمالك وطهر  
نفسك . وأنا إلى مكان أيام تعذبني بأحزانها وتخيفني  
بأشباحها . أنت إلى الحياة وأنا إلى اللزع . أنت إلى الأناج  
والالفة وأنا إلى الوحشة والانفراد . ولكنني سأرفع في وادي  
ظل الموت تمثالاً للحب وأعبده . سأتحذ الحب سميماً وأسمعه  
منشداً وأشربه خمرأ وألبسه ثوباً . عند الفجر سينبهي الحب  
من رقادي ويسير أمامي إلى البرية البعيدة . وعند الظهر  
سيقودني الى ظل الأشجار فأربض مع العصافير المحتمية من  
حرارة الشمس . وفي المساء سيقفني امام المغرب ويسمعي  
نعمة وداع الطبيعة للنور ويريني أشباح السكينة ساجدة في  
الفضاء . وفي الليل سيمانتني فأنام حاملماً بالعوالم العلوية حيث  
تقطن أرواح المشاق والشعراء . وفي الربيع سأمشي والحب



جنباً لجنب ، مترغين بين التلول والمنحدرات متبعين آثار اقدام الحياة المخططة بالبنفسج والاقحوان ، شاربين بقايا الامطار بكؤوس النرجس والزنبق . وفي الصيف سأتكىء والحب ساندين رأسينا إلى أغهار القش مفترشين لاعشاب ملتحفين السماء ساهرين مع القمر والنجوم . وفي الخريف سأذهب والحب إلى الكروم فنجلس بقرب المعاصر ناظرين إلى الاشجار وهي تخلع أثوابها المذهبة متأملين بأمراب الطيور الراحلة إلى الساحل . وفي الشتاء سأجلس والحب بقرب الموقد تالين حكايات الاجيال مرددين أخبار الامم والشعوب . وفي أيام الشيبية سيكون لي الحب مهذباً ، وفي الكهولة عضداً ، وفي الشيخوخة مؤنساً . سيظل الحب معي يا سلمى إلى نهاية العمر ، إلى ان يجيء الموت ، إلى أن تجمعي بك قبضة الله . كانت الالفاظ تتصاعد مسرعة من أعماق نفسي كأنها شعلات من نار تنمو وتنطير ثم تلبدد وتضمحل في زوايا تلك الحديقة ، وكانت سلمى مصفية والدموع تنهمر من عينيها كأن أجفانها شفاه تجيبي بالدموع على الكلام .

ان الذين لم يهيم الحب أجنحة لا يستطيعون أن يطيروا إلى ما وراء الغيوم ليروا ذلك العالم السعري الذي طافت فيه روحي وروح سلمى في تلك الساعة الحزنة بأفراحها المفرحة بأوجاعها . ان الذين لم يتخذهم الحب أتباعاً لا يسمعون الحب متكلماً ، فهذه الحكاية لم تكتب لهم ، فهم وأن فهموا معاني هذه الصفحات الضئيلة لا يمكنهم ان يروا ما

يسيل بين سطورها من الأشباح والأخيلة التي لا تلبس الحسب  
ثوباً ولا تتخذ الورق مسكناً . لكن أي بشري لم يرشف من  
خمرة الحب في احدي كاساته ؟ أية نفس لم تقف متهيبة في  
ذلك الهيكل المنير المرصوف بجبات القلوب المسقوف بالأسرار  
والاحلام والمواطف ؟ أي زهرة لم يسكب الصباح قطرة من  
الندى بين أوراقها ؟ وأي ساقية تفضل طريقها ولا تذهب إلى  
البحر ؟

ورفعت سلمى إذ ذاك رأسها نحو السماء المزينة بالكواكب  
ومدت يديها إلى الامام وكبرت عينها وارتمت شفاتها  
وظهر على وجهها المصفر كل ما في نفس المرأة المظلومة من  
الشكوى والقنوط والألم ، ثم صرخت قائلة : ماذا فعلت  
المرأة يارب فاستحقت غضبك ؟ ماذا أتت من الذنوب ليتبعها  
سخطك إلى آخر الدهور ؟ هل اقترفت جرماً لا نهاية لفضاعته  
ليكون عقابك لها بنير نهاية ؟ أنت قوي يارب وهي  
ضعيفة فلماذا تبيدها بالأوجاع ؟ أنت عظيم وهي تدب حول  
عرشك فلماذا تسحقها بقدميك ؟ أنت عاصفة شديدة وهي  
كالغبار أمام وجهك فلماذا تقدرها على الثلوج ؟ أنت جبار  
وهي بانسة فلماذا تحاربها ؟ أنت بصير عليم وهي فائمة عمياء  
فلماذا تهلكها ؟ أنت توجدتها بالهبة فكيف بالهبة تفنيها ؟  
بيمينك ترفعها اليك وبشمالك تدفعها إلى الهاوية وهي جاهلة  
لا تدري أنى ترفعها وكيف تدفعها ؟ في فما تنفخ نسمة الحياة  
وفي قلبها تورع بذور الموت . على سبل السعادة تسيرها راجلة

ثم تبعث الشقاء فارساً ليصطادها . في حنجرتها ثبت نعمة  
 الفرح ثم تفلق شفيتها بالحزن وتربط لسانها بالكآبة بأصابعك  
 الخفية تنطق باللذة أوجاعها وبأصابعك الظاهرة ترسم هالات  
 الاوجاع حول ملذاتها . في مضجعها تخفي الراحة والسلامة  
 ويحانب مضجعها تقيم المخاوف والمتاعب . بإرادتك تحيي  
 ميولها . ومن ميولها تتولد عيوبها وزلاتها . بعشيتك تربها محاسن  
 مخلوقاتك وبمشيتك تنقلب محبتها للحسن بجماعة مهلكة .  
 بشريعتك تزوج روحها من جسد جميل وبفضائك تجعل  
 جسدها بعلا للضعف والهوان . أنت تسقيها الحياة بكأس  
 الموت والموت بكأس الحياة . أنت تطهرها بدموعها ويدموعها  
 قديبها . أنت تملأ جوفها من خبز الرجل ثم تملأ حفنة الرجل  
 من حبات صدرها . أنت أنت يارب قد فتحت عيني بالهبة  
 وبالهبة أعميتني . أنت قبلتني بشفتيك وبيدك القوية صغعتني .  
 أنت زرعت في قلبي وردة بيضاء وحول هذه الوردة أنبتت  
 الاشواك والحسك . أنت أوثقت حاضري بروح فتى أحبه  
 ويجسد رجل لا أعرفه . قيدت أيامي فساعدني لأكون قوية  
 في هذا الصراع المميت وأسعفتني لأبقى أمينة وطاهرة حتى  
 الموت . . . لتكن مشيتك يارب . ليكون اسمك مباركا  
 إلى النهاية .

وسكنت سلمي وظلمت ملاحظها تتكلم ، ثم حنت رأسها  
 وأرخت ذراعها وانخفض هيكلها كأن القوى الحيوية قد تركتها  
 فبانف لناظري كفصن قصفته العاصفة وألقته إلى الحضيض

ليجف ويندر تحت أقدام الدهر . فأخذت يدها الثلجة بيدي  
الملتبهة ، قبلت أصابعها بأجفاني وشفقي ، ولما حاولت تعزيتها  
بالكلام وجدتني أخرى منها بالتمزية والشفقة ، فبقيت صامتاً  
حائراً متأملاً شاعراً بتلاعب الدقائق بعواطفي ، مصغياً  
لأنثى قلبي في داخلي ، خائفاً من نفسي على نفسي .

ولم ينبس أحداً ببنت شفة في ما بقي من تلك الليلة ، لأن  
اللوعة إذا عظمت تصير خرساء ، فبقينا ساكتين جامدين  
كعمودي رخام قبرهما الزلزال في التراب . ولم يعد أحداً يريد  
أن يسمع الآخر متكلماً ، لأن خيوط قلبينا قد وهت حتى  
صار التنهد دون الكلام يقطعها .

انتصف الليل ونمت رهبة السكوت وطلع القمر ناقصاً من  
وراء صنين وبان بين النجوم كوجه ميت شاحب غارق في  
المساند السوداء بين شموع ضئيلة تحيط بنعشه . وظهر لبنان  
كشيخ لوت ظهره الأعوام وأناخت هيكله الأعران وهجر  
أجفانه الرقاد فبات يساهر الدجى ويترقب الفجر كملك مغلوع  
جالس على رماد عرشه بين خرائب قصره . ان الجبال  
والأشجار والأنهار تتبدل هيئاتها ومظاهرها بتقلب الحالات  
والأزمنة مثلما تتغير ملامح وجه الانسان بتغير أفكاره  
وعواطفه ، فشجرة الحور التي تتعالى في النهار كعمروس جميلة  
يلعب النسيم أنوارها تظهر في المساء كعمود دخان يتصاعد نحو  
اللاشيء والصخر الكبير الذي يجلس عند الظهر كجبار قوي  
يهرأ بعاديات الزمن يبدو في الليل كفقير بائس يفرش اللى

ويلتحف الفضاء . والساقية التي تراها عند الصباح متلعة  
كذوب اللجين ونسمة مترنمة بأغنية الخلود نخالها في المساء  
يجري دموع يتفجر من بين أضلع الوادي ونسمة تندي  
وتنوح كالشكلى . ولبنان الذي ظهر منذ اسبوع بكل مظاهر  
الجلال والرونق عندما كان القمر بدرأ والنفس راضية قد بان  
في تلك الليلة كثيراً منهوكاً مستوحشاً أمام قمر ضئيل ناقص  
هائم في عرض السماء . وقلب خافق معتل في داخل الصدر .  
وقفنا للوداع وقد وقف بيننا الحب واليأس شبحين هائلين ،  
هذا باسط جناحيه فوق رأسينا وذاك قابض بأظافره على  
عنقينا . هذا يبكي مرتاعاً وذاك يضحك ساخراً . ولما أخذت  
يد سلى ووضعته على شفتي متبركاً دنت مني ولثمت مفرق  
شعري ، ثم عادت فارثت على المقعد الخشي وأطبقت أجفانها  
وهمست ببطء : اشفق يا رب وشدد جميع الأجنحة المتكسرة .  
انفصلت عن سلى وخرجت من تلك الحديقة شاعراً  
بنقاب كثيف يوشي مداركي الحسية مثلما يغمز الضباب وجه  
البحيرة . وممرت وأخيلة الأشجار القائمة على جانبي الطريق  
تتحرك أمامي كأنها أشباح قد انبثقت من شقوق الأرض  
لتخيفني ، وأشعة القمر الضعيفة ترتعش بين الغصون كأنها سهام  
دقيقة تريشها أرواح الجان السابحة بالفضاء نحو صدري ،  
والسكينة العميقة تحيم علي كأنها أكف سوداء ثقيلة القتها الظلمة  
على جسدي .

كل ما في الوجود وكل معنى في الحياة وكل سر في النفس

قد صار قبيحاً رهيباً هاللاً ، فالنور المنوي الذي أراي جمال  
العالم وبهجة الكائنات قد انقلب ناراً تحرق كبدي بلهيبها  
وتستر نفسي بدخانها ، والنفمة التي كانت تضم إليها أصوات  
المخلوقات وتجعلها نشيد علويًا قد استعالت في تلك الساعة إلى  
ضجيج أروع من زجيرة لأسد وأعمق من صراخ الهاوية .

بلفت غرفتي وأرتسا على فراشي كطائر رماه الصياد فسقط  
بين السياج والسهم في قلبه . وظلت عاقلتي تراوح بين يقظة  
مخيفة ونوم مزعج ، وروحي في داخلي تردد في الحالتين كلتا  
سلى : أشفق يا رب وشدد جميع الأجنحة المتكسرة .

## أمسام عرش الموت



إنما الزيجة في أيامنا هذه تجارة مضحكة مبكية يتولى  
أمورها الفتيان وآباء الصبايا ، الفتيان يربحون في أكثر  
المواطن والآباء يخسرون دائماً ، أما الصبايا المنتقلات كالسبع  
من منزل إلى آخر فتزول بهجتهم ، ونظير الأمتعة العتيقة  
يصير نصيبهن زوايا المنازل حيث الظلمة والفناء البطيء .

إن المدنية الحاضرة قد أنمت مدارك المرأة قليلا ولكنها  
أكثرت أوجاعها بشعم مطامع الرجل . كانت المرأة بالأمس  
خادمة سيدة فصارت اليوم سيدة تئمة . كانت بالأمس عمياء  
تسير في نور النهار فأصبحت مبصرة تسير في ظلمة الليل .  
كانت جميلة يجهلها فاضلة ببساطتها قوية بضعفها فصارت قبيحة  
بتفنتها سطحية بمداركها بعيدة عن القلب بمعارفها . فهل يجيء  
يوم يجتمع في المرأة الجمال بالمعرفة ، والتفنن بالفضيلة ، وضعف  
الجسد بقوة النفس ؟ أنا من القائلين ان الارتقاء الروحي سنة  
في البشر ، والتقرب من الكمال شريطة بطيئة لكنها فعالة  
فإذا كانت المرأة قد ارتقت بشيء وتأخرت بشيء آخر فلأن  
العقبات التي تبلغنا قمة الجبل لا تخلو من مكان اللصوص .

وكهوف الذئاب . ففي هذا الجبل الشبيه بالغيوبة التي تتقدم اليقظة - في هذا الجبل القابض بكفيه على تراب الاجيال الغابرة وبزور الاجيال الآتية - في هذا الجبل الغريب بميوله وأمانيه لا تخلو مدينة من امرأة ترمز بوجودها عن ابنة المستقبل . وسلمى كرامه كانت في بيروت رمز المرأة الشرقية العتيقة ، ولكنها كالكثيرين الذين يعيشون قبل زمانهم قد ذهبت ضحية الزمن الحاضر ، ونظير زهرة اختطفها تيار النهر قد صارت قهراً في موكب الحياة نحو الشقاء .

وتزوج منصور بك غالب من سلمى فسكننا معاً في منزل فخيم قائم على شاطئ البحر في رأس بيروت حيث يقطن وجهاء القوم والاعنياء وبقي فارس كرامه وحده في ذلك البيت المنفرد بين الحدائق والبساتين انفراد الراعي بين أغنائه ومضت أيام العرس وانقضت ليالي الأفراح ، ومر الشهر الذي يدضوه الناس عسلاً تاركا وراءه شهور الخلل والملقم مثلما تترك أمجاد الحروب جهاجم القتلى في البرية الهعيدة . . . ان يهرجة الاعراس الشرقية تصعد بنفوس الفتيان والصبايا صعود النسر الى ما وراء الغيوم ثم تهبط بهم هبوط حجر الرخى الى اعماق الميم ، بل هي مثل آثار الأقدام على رمال الشاطئ لا تلبث أن تمحوها الأمواج .

وذهب الربيع وتلاه الصيف وجاء الخريف ومحبتي لسلمى تتدرج من شغف فتى في صباح العمر بامرأة حسناء إلى نوع من تلك العبادة الخرساء التي يشعر بها الصبي اليتيم نحو



روح أمه الساكنة في الأبدية ، فالصباية التي كانت تمتلك كليتي قد تحولت إلى كآبة عمياء لا ترى غير نفسها ، والولع الذي كان يستدر الدموع من عيني قد انقلب ولها يستقطر الدم من قلبي ، وأنة الحنين التي كانت تملأ ضلوعي أصبحت صلاة عميقة تقدمها روحي في السكينة أمام السماء مستعدة السعادة لسلي والغبطة لبعلي والطمانينة لوالدها ، ولكن باطلا كنت أشفق وابتهل وأصلي لأن تعاسة سلي كانت علة في داخل النفس لا يشفيها سوى الموت . أما بعلي فكان من أولئك الرجال الذين يحصلون بغير تعب على كل ما يجعل الحياة هنيئة ولا يقنعون بل يطمحون دائما إلى ما ليس لهم ، وهكذا يظنون معذبين بمطامعهم إلى نهاية أيامهم . وباطلا كنت أرجو الطمانينة لفارس كرامه لأن صهره لم يستلم يد ابنته ويحصل على أموالها الطائلة حتى نسيه وهجره بل صار يطلب حتفه توصلا إلى ما بقي من ثروته .

كان منصور بك شبيهاً بعمه المطران بولس غالب ، وكانت أخلاقه كأخلاقه ، ونفسه صورة مصفرة لنفسه ، ولم يكن الفرق بينها إلا بما يفرق الرياء عن الانحطاط . كان المطران يبلغ أمانيه مستتراً بأثوابه البنفسجية ويشبع مطامعه محتئياً بالصليب الذهبي المعلق على صدره ، أما ابن أخيه فكان يفعل كل ذلك جهاراً وعنوة . كان المطران يذهب إلى الكنيسة في الصباح ويصرف ما بقي من النهار منتزعاً الأموال من الأراامل

واليتامى وبسطاء القلب ، أما منصور بك فكان يقضي النهار كله متبعاً لذاته ملاحقاً شهواته في تلك الأزقة المظلمة حيث يختمر الهواء بأنفاس الفساد .

كان المطران يقف يوم الأحد أمام المذبح ويمعظ المؤمنين بما لا يتعظ به ويصرف أيام الأسبوع مشتغلاً بسياسة البلاد ، أما ابن أخيه فكان يصرف جميع أيامه متاجراً بنفوذه بين طالبي الوظائف ومريدي الوجاهة . كان المطران لصاً يسير مختبئاً بستائر الليل ، أما منصور بك فكان محتملاً يمشي بشجاعته في نور النهار .

كذا تبيد الشعوب بين اللصوص والمحتالين مثلما تفنى القطمان بين أنياب الذئاب وقواطع الجزارين ، وهكذا تستسلم الأمم الشرقية إلى ذوي النفوس المعوجة والأخلاق الفاسدة فتتراجع إلى الوراء ثم تهبط إلى الحضيض فيمر الدهر ويسحقها بأقدامه مثلما تسحق مطارق الحديد آنية الفخار .

وماذا يا ترى يجعلني الآن أشغل هذه الصفحات بالكلام عن أمم بائسة يائسة وأنا قد خصصتها لتدوين حكاية امرأة ناعسة وتصوير خيالات قلب وجيع لم يلمسه الحب بأفراحه حق صفعه بأحزانه ؟ .. لماذا تراود الدموع أجفائي لذكر شعوب خاملة مظلومة وأنا قد وقفت دموعي على ذكرى أيلم امرأة ضعيفة لم تعاق الحياة حتى احتضنها الموت ،

ولكن أليست المرأة الضعيفة هي رمز الأمة المظلومة ؟  
أليست المرأة المتوجعة بين ميول نفسها وقيود جسدها هي  
كالأمة المتعذبة بين حكامها وكهانها ؟ أو ليست العواطف  
الخفية التي تذهب بالصبية الجميلة الى ظلمة القبر هي كالعواصف  
الشديدة التي تغمر حياة الشعوب بالتراب ؟ ان المرأة من الأمة  
بنزلة الشماع من السراج ، وهل يكون شعاع السراج ضئيلاً  
إذا لم يكن زيتُه شحيحاً ؟

\* \* \*

مضت أيام الخريف وعمرت الرياح الأشجار متلاعبية  
بأوراقها الصفراء مثلما تداعب الأنواء زبد البحر ، وجاء  
الشتاء باكياً منتعباً وأنا في بيروت ولا رفيق لي سوى أحلام  
تتصاعد بنفسي تارة فتبلسها الكواكب ، وتنخفض بقلبي طوراً  
فتلحده يحوف الأرض .

ان النفس الكئيبة تجد راحة بالعزلة والانفراد فتتهجر الناس  
مثلما يبتعد الغزال الجريح عن سربه ويتوارى في كهفه حتى  
يبرأ او يموت .

ف ذات يوم سمعت باعتلال فارس كرامه ، فتركت وحدتي  
وذهبت لميادته ماشياً على ممر منفرد بين أشجار الزيتون  
المتلعة اوراقها الرصاصية بقطرات المطر ، متنحياً عن الطريق  
العمومية حيث تزعج ضجة المركبات سكينه الفضاء .

بلغت منزل الشيخ ودخلت عليه فوجدته ملقى على فراشه  
مضنى الجسم ، شاحب الوجه ، أصفر اللون ، قد غرقت  
عيناه تحت حاجبيه فباتتا كهوتين عميقتين مظلمتين تجول فيها  
أشباح السقم والألم ، فاللامح التي كانت بالأمس عنوات  
البشاشة والانديساط قد تقلصت واكفهرت واصبحت كصحيفة  
رمادية متجمدة تكتب عليها العلة سطوراً عربية ملتبسة .  
واليدان اللتان كانتا مغلفتين باللطف واللدانة قد انحلتا حتى  
بدت عظام اصابعها من تحت الجلد كقضبان عارية ترتعش أمام  
العاصفة .

ولما دلوت منه سائلاً عن حاله حول وجهه المهزول نحوي  
وظهر على شفتيه المرتجفتين خيال ابتسامة محزنة ، وبصوت  
ضعيف خافت نخلته أتياً من وراء الجدران قال : اذهب ،  
اذهب يا ابني الى تلك الغرفة وامسح دموع سلمي وسكن  
روعا ثم عد بها إلي لتجلس بجانب فراشي . . .

دخلت الغرفة المحاذية فوجدت سلمي منطرحة على مقعد  
وقد غمرت رأسها بزنديها وغرقت وجهها بالمساند وأمسكت  
أنفاسها كيلا يسمع والدها نحيبها . فاقتربت منها ببطء  
ولفظت اسمها بصوت أقرب الى التنهد منه الى الهمس ،  
فتحركت مضطربة كمنام تراوده الأحلام الخفيفة ثم استوت على  
مقعدا ونظرت إلي بعينين شاخصتين جامدتين كأنها ترى  
شبحاً في عالم الرؤيا ولا تصدق حقيقة وجودي في ذلك  
المكان .

وبعد سكوت عميق أرجعنا بتأثيراته السحرية الى تلك  
الساعات التي سكرنا فيها من خمرة الآلهة مسحت سلمي  
دموعها بأطراف اناملها وقالت متحصرة : أرأيت كيف  
تبدلت الأيام ؟ أرأيت كيف أضلنا الدهر فسرنا مسرعين الى  
هذه الكهوف المفزعة ؟ في هذا المكان جمعنا الربيع في قبضة  
الحب ، وفي هذا المكان يجمعنا الآن الشتاء امام عرش  
الموت ، فما أهي ذلك النهار وما أشد ظلمة هذا الليل .

قالت هذه الكلمات وقد ابتلعت الغصات وأخراها ثم  
عادت فسارت وجهها بيديها كأن ذكرى الماضي قد تجسدت  
ورقفت أمامها فلم تشأ ان تراها . فوضعت يدي على شعرها  
قائلا : تعالي يا سلمي ، تعالي ننتصب كالابراج أمام الزوبعة .  
هلمي نقف كالجنود أمام الأعداء متلقين شفار السيوف  
بصدورنا لا بظهورنا ، فان صرعنا بموت كالشهداء وان تغلبنا  
نعيش كالأبطال . . . ان عذاب النفس بشباتها امام المصاعب  
والمناعب هو اشرف من قهقرها الى حيث الامن والطمأنينة .  
فالغراشة التي تظل مرفرفة حول السراج حتى تحترق هي  
أسمى من الخلد الذي يعيش براحة وسلامة في نفقه المظلم .  
والنواة التي لا تحتل برد الشتاء وثورات العناصر لا تقوى على  
شق الأرض ولن تفرح بحمال نيسان . . . هلمي نسريا سلمي  
بقدم ثابتة على هذه الطريق الوعرة . رافعين اعيننا نحو الشمس  
كيلا نرى الجماجم المطروحة بين الصخور ، والافاعي المنسابة  
بين الاشواك ، فان اوقفنا الخوف في منتصف الطريق

أسمعتنا أشباح الليل صراخ الاستهزاء والسخرية ، وان بلغنا قمة الجبل بشجاعة تترنم معنا ارواح الفضاء بالنشودة النصر والاستظهار . . . . خففي عنك يا سلمى وجففي دموعك واخفي هذه الكتابة الظاهرة على حياك وقومي لمجلس يجانب فراش والدك لان حياته من حياقتك وشفاهه بابتسامك .

فنظرت إلي نظرة ملؤها الحنان والرافة والانعطاف ثم قالت : أطلب مني الصبر والتجملد وفي عينيك معنى اليأس والقنوط ؟ أيعطي الفقير الجائع خبزه للجائع الفقير؟ أو يصف العليل دواء لعليل آخر وهو أحرى بالدواء ؟

ثم وقفت وسارت أمامي منحنية الرأس الى غرفة والدها. جلسنا بقرب مضجع الشيخ العليل وسلمى تتكلف الابتسام وهدوء البال وهو يتكلف الراحة والقوة ، وكل منها شاعر بلوعة الآخر ، عالم بضعفه ، سامع غصات قلبه ، فكانا مثل قوتين متضارعتين يفني بضعها بعضاً في السكينة . والد دنف يذوب ضنى لتعاسة ابنته ، وابنة محبة تدبيل متوجعة بعلة والدها. نفس راحلة ونفس يائسة تتماقتان أمام الحب والموت ، وأنا بينها أتحمل ما بي وأقاسي ما يها. ثلاثة جمعهم يد القضاء ثم قبضت عليهم بشدة حتى سحقتهم : شيخ يمثل بيتاً قديماً هدمه الطوفان ، وصبية تحاكي زنبقة قطع عنقها حد المنجل ، وفقى يشابه غرسة ضعيفة لوت قامتها الثلوج ، وجميعنا مثل العوبة بين أصابع الدهر .

وتحرك الشيخ إذ ذاك بين اللحف ومد يده النحيصة نحو  
سلسي ، وبصوت أودعه كل ما في قلب الأب من الرقة والرافة  
وكل ما في الصدر العليل من السقم والآلم قال : ضمي يدك في  
يدي يا سلسي .

فمدت يدها وألقتها بين أصابعه فضمها بلطف ثم زاد  
قائلاً : لقد شيمت من السنين يا ولدي ، قد عشت طويلاً  
وتلذذت بكل ما تثمره الفصول وتمتعت بكل ما تبرزه الأيام  
والليالي ، قد لاحقت الفراش صيباً وعانقت الحب فتى  
وجمعت المال كهلاً ، وكنت في جميع هذه الأدوار سعيداً  
مغتنباً . فقدت أمك يا سلسي قبل ان تبلغني الثالثة ولكنها  
أبقتك لي كنزاً ثميناً ، فكنت تتمين بسرعة نحو الهلال  
وتنعكس على وجهك ملامح أمك مثلما تنعكس أشعة النجوم  
في حوض ماء هاديء ، وتظهر أخلاقها ومزاياها بأعمالك  
وأقوالك ظهور الخلي الذهبية من وراء النقاب الرقيق ،  
فتعزيت بك يا ولدي لأنك كنت مثلها جميلة وحكيمة . . .  
والآن قد صرت شيخاً طاعناً وراحة الشيوخ بين أجنحة  
الموت الناعمة ، فتعزي يا ولدي لأنني بقيت لأراك امرأة كاملة ،  
واقرحي لأنني ساقى بك حياً بعد موتي . إن ذهابي الآن هو  
مثل ذهابي غداً او بعده ، لأن إيماننا مثل أوراق الخريف ،  
تساقط وتلبدد امام وجه الشمس فان أسرعني في الساعات  
إلى الأبدية فلأنها علمت ان روحي قد اشتاقت الى لقاء أمك .

لفظ الكلمات الأخيرة بنغمة مفعمة بجلاوة الحنين والرجاء  
 ولاحت على وجهه المنقبض أشعة شبيهة بذلك النور الذي  
 ينبثق من أجفان الأطفال ، ثم مد يده بين المساند المحيطة  
 برأسه وانتشل صورة صغيرة قديمة ينطقها إطار من الذهب  
 قد نعمت حدوده ملامس الأيدي ومحت نقوشه قبل الشفاء ،  
 ثم قال دون ان يحول عينيه عن الرسم : اقتربي ياسلمى ،  
 اقتربي مني يا ولدي لأريك خيال أمك . تعالي وانظري ظلها  
 على صفحة من الورق .

فدنت سلمى ماسحة الدموع من مقلتيها كيلا تحول بين  
 ناظرها والرسم الضئيل ، وبعد ان حدقت اليه طويلا كأنه  
 مرآة تعكس معانيها وشكل وجهها قربته من شفيتها وقبلته  
 بلهفة مراراً متوالية ثم صرخت قائلة : يا أماء . يا أماء .  
 يا أماء ! ولم تزد على هذه الكلمة بل عادت فوضعت الرسم  
 على شفيتها المرتعشتين كأنها تريد ان تثبت فيه الحياة بأنفاسها  
 الحارة ...

ان أعذب ما تحدثه الشفاء البشرية هو لفظة « الأم » ،  
 وأجمل مناداة هي : يا أمي . كلمة صغيرة كبيرة مملوءة  
 بالأمل والحب والانعطاف وكل ما في القلب البشري من الرقة  
 والحلاوة والمذوبة . الأم هي كل شيء في هذه الحياة ، هي  
 التعزية في الحزن ، والرجاء في اليأس ، والقوة في الضعف  
 هي ينبوع الحنو والرأفة والشفقة والغفران ، فالذي يفقد



أمه يفقد صدرأ يسند اليه رأسه ويدأ تباركه وعينا  
تخرسه ...

كل شيء في الطبيعة يرمز ويتكلم عن الامومة ، فالشمس  
هي أم هذه الأرض ترضعها حرارتها وتحتضنها بنورها ولا  
تفادرها عند المساء إلا بعد ان تنومها على نغمة أمواج البحر  
وترنيمه العصافير والسواقي ، وهذه الأرض هي ام للشجار  
والأزهار تلدها وترضعها ثم تقطعها . والأشجار والأزهار  
تصير بدورها أمهات حنونات للأثمار الشبية والبزور الحية .  
وأم كل شيء في الكيان هي الروح الكلية الأزلية الأبدية  
المملوءة بالجمال والمحبة .

وسلى كرامه لم تكن تعرف امها لأنها ماتت وهي طفلة ،  
وقد شقت متأثرة عندما رأت رسمها ونادتها : يا أماه ، فسر  
إرادتها ، لأن لفظة الأم تختبئ في قلوبنا مثلما تختبئ النواة  
في قلب الأرض ، وتنبثق من بين شفاهنها في ساعات الحزن  
والفرح كما يتصاعد العطر من قلب الوردة في الفضاء الصافي  
والمطر .

كانت سلى تحديق الى رسم أمها ثم تقبله بلهفة ثم تلزه إلى  
صدرها الحفوق ثم تتأوه متنهدة ومع كل تنهدة تفقد جزءاً من  
قواها ، حتى إذا ما وهت الحياة في جسدها النحيل هوت  
وسقطت بجانب سرير أبيها ، فوضع كلتا يديه على رأسها  
قائلاً : قد أريتك يا ولدي شبح أمك على صفحة من الورق ،  
فاصني إلي لأسمعك أقوالها .

فرفعت سلى رأسها مثلما تفعل الفراخ في العش عندما تسمع حفيف أجنحة العصفورة بين القضبان ، ونظرت اليه مصغية صاغرة كأن ذاتها المعنوية قد استحالت الى أعين محدقة وآذان واعية .

فقال والدها : كنت طفلة رضية عندما فقدت أمك والدها الشيخ فحزنت لفقده وبكت بكاء حكيم متجلد ، ولكنها لم تعد من بجانب قبره حتى جلست يجانبي في هذه الغرفة وأخذت يدي براحتها وقالت : قد مات والدي يا فارس وأنت باقى لي وهذه هي تعزيتي . ان القلب بمواطفه المتشعبة يماثل الارزة بأغصانها المتفرقة ، فإذا ما فقدت شجرة الأرز غصناً قوياً تتألم ولكنها لا تموت بل تحول قواها الحيوية الى الغصن المجاور لينمو ويتعالى ويملأ بفروعه الغضة مكان الغصن المقطوع . هذا ما قالته والدتك يا سلى عندما مات أبوها وهذا ما يجب عليك ان تقوليهِ عندما يأخذ الموت جسدي إلى راحة القبر وروحي إلى ظل الله .

فأجابت سلى متفجعة : فقدت أمي والدها فبقيت أنت لها ، فمن يبقى لي إذا فقدتك يا والدي ؟ مات والدها وهي في ظلال زوج يحب فاضل أمين ، مات والدها فبقي لها طفلة تغمر رأسها الصغير بشديبها وتطوق عنقها بذراعيها ، فمن يبقى لي إذا فقدتك يا والدي ؟ أنت أبي وأمي ورفيق حداثتي ومهذب شببتي ، فمن أستمض إذا ما ذهبت عني ؟ .

قالت هذا وحولت عينيها الدامعتين نحو بي وأمسكت  
 بيمينها طرف ثوبي ثم قالت : ليس لي غير هذا الصديق يا  
 والدي ولن يبقى لي سواء إذا ما تركتني ، فهل أتعزى به  
 وهو متعذب مثلي ؟ هل يتعزى كسير القلب بالقلب الكسير ؟  
 ان الحزينة لا تتصبر بحزن جارتها كما ان الحمامة لا تطير بأجنحة  
 مكسورة . هو رفيق لنفسي ولكنني قد أثقلت عاتقه  
 بأشجالي حتى لويت ظهره وسملت عينيه بعبراتي فلم يعد يرى  
 غير الظلمة . هو أخ أحبه ويحبني ولكنه مثل جميع الأخوة  
 يشترك بالمصيبة ولا يخففها ، ويساعد بالبكاء فيزيد الدمع مرارة  
 والقلب احتراقاً .

كنت اسمع سلى متكلمة وعواطفني تنمو وصدري يضيق  
 حتى شعرت بأن أضلعي تكاد تنفجر حناجر وفوهات ، أما  
 الشيخ فكان ينظر اليها وجسده المهزول يهبط ببطء بين الوسائد  
 والمساند ، ونفسه المتعبة ترتجف كشعلة السراج امام الريح ،  
 ثم بسط ذراعيه وقال يهدوء : دعيني أذهب بسلام يا ولدي ،  
 لقد لمحت عيناى ما وراء النجوم ، فلن أحولها نحو هذه  
 الكهوف . دعيني أطيّر فقد كسرت بأجنحتي قضبان هذا  
 القفص ... قد ناديتني أمك يا سلى فلا توقفيني ... ها قد  
 طابت الريح وتبدد الضباب عن وجه البحر فرفعت السفينة  
 ثراعا وتأهبت للمسير فلا توقفها ولا تنزعني دفتها . دعني  
 جسدي يرقد مع الذين رقدوا ودعني روحي تستيقظ لأن الفجر  
 قد لاح والحلم قد انتهى ... قبلي روحي بروحك ... قبليني

قبلة رجاء وأمل ولا تسكبي قطرة من مرارة الحزن على جسدي  
 لئلا تمتنع الاعشاب والازهار عن امتصاص عناصره . ولا  
 تدرني دموع اليأس على يدي لأنها تنبت شوكا على قبوري . ولا  
 ترسمي بزفرات الاسى سطرأ على جبهتي لأن نسيم السحر يمر  
 ويقراءه فلا يحمل غبار عظامي الى المروج الخضراء .. قد  
 لمحببتك بالحياة يا ولدي وسوف أحبك بالموت فتظل روحي  
 قريبة منك لتحييك وترعاك .

والتفت الشيخ إلي وقد انطبقت أجفانه قليلا فلم أعد أرى  
 سوى خطين رماديين مكان عينيه ، ثم قال وسكينة الفناء  
 تسترق ألفاظه : أما أنت يا ابني فكن أخا لسلي مثلما كان  
 والدك لي . كن قريباً منها في ساعات الشدة ، وكن صديقاً  
 لها حتى النهاية ، ولا تدعها تحزن لأن الحزن على الاموات غلطة  
 من أغلاط الأجيال الفسادة . بل اتل على مسمعا أحاديث  
 الفرح وأنشدها أغاني الحياة فتسلو وتتناسي ... قل لأبيك أن  
 يذكرني ، سه فيخبرك عن مآتي أيامي عندما كان الشباب  
 يخلق بنا إلى الغيوم .. قل له انني احببته بشخص ابنه في  
 آخر ساعة من حياتي ...

وسكت دقيقة وظلت أشباح ألفاظه تدب على جذبان  
 الفرقة ، ثم عاد فنظر إلي وإلى سلس بوقت واحد وقال  
 همساً : لا تدعوا طبيباً لي طيل بمساحيقه ساعات سجنني لأن  
 أيام العبودية قد مضت فطلبت روحي حرية الفضاء . ولا

تدعوا كاهناً إلى جانب فراشي لأن تمازيجه لا تكفر عن  
ذنوبي ان كنت خاطئاً ، ولا تسرع بي الى الجنة ان كنت  
باراً . ان ارادة البشر لا تغير مشيئة الله كما ان المجمعين لا  
يحولون مسير النجوم . اما بعد موتي فليفعل الأطباء والكهان  
ما شاؤوا ، فاللجة تنادي اللجة اما السفينة فتظل سائرة  
حق تبلغ الساحل ...

\* \* \*

عندما انتصف ذلك الليل الخفيف فتح فارس كرامه عينيه  
النارقتين في ظلمة النزع ، فتحتها لآخر مرة ، وحولها نحو  
ابنته الجاثية بجانب مضجعه ، ثم حاول الكلام فلم يستطع  
لأن الموت كان قد تشرب صوته فخرجت هذه الألفاظ لهاثاً  
حقيقاً من بين شفتيه : ها قد ذهب الليل ... وجاء الصباح ...  
يا سلى . يا . يا سلى ...

ثم نكس رأسه وابيض وجهه وابتسمت شفتاه وأسلم  
الروح .

ومدت سلى يدها ولمست يد والدها فوجدتها باردة  
كالثلج ، قرفعت رأسها ونظرت اليه فرأت وجهه مبرقماً  
بنقاب الموت ، فجمدت. الحياة في جسدها وجفت الدموع في  
مخارجها ، فلم تتحرك ولم تصرخ ولم تتأوه ، بل بقيت محدقة  
اليه بعينين جامدتين كعيني التمثال ، ثم تراخت أعضاؤها مثلما  
تتراخي طيات الثوب البليل ، وهبطت حتى لمست جبهتها

الأرض ، ثم قالت يهدوء: اشفق يا رب وشدد جميع الأجنحة المتكسرة .

\* \* \*

هات فارس كرامه وعانقت الأبدية روحه واسترجع التراب جسده ، واستولى منصور بك على أمواله وظلت ابنته أسيرة تعاستها ترى الحياة مأساة هائلة تمثلها الحسوف أمام عينيها .

أما أنا فكنت ضائماً بين أحلامي وهواجسي ، تفتابني الأيام والليالي مثلما تفتاب النور والعقبان لسان الفرنسة . فكم حاولت أن أفقد ذاتي بين صفحات الكتب لعلي استانس بأخيلة الذين طوام الدهر ، وكم جربت أن أنسى حاضري لأعود بقراءة الاسفار إلى مسارح الأجيال الغابرة ، فلم يجدي كل ذلك نفعاً بل كنت كمن يحاول اخماد النار بالزيت ، لأنني لم أكن أرى من مواكب الاجيال سوى اشباحها السوداء ، ولا أسمع من أنغام الأمم غير الندب والنواح ، فسفر ايوب كان عندي أجمل من مزامير داود ، ومراثي ارميا كانت أحب لدي من نشيد سليمان ، ونكبة البرامكة أشد وقعاً في نفسي من عظمة العباسيين ، وقصيدة ابن زريق أكثر تأثيراً من رباعيات الخيام ، ورواية هملت أقرب الى قلبي من كل ما كتبه الأفرنج .

كذا يضعف القنوط بصيرتنا فلا نرى غير أشباحنا الرهيبه ، وهكذا يعم اليأس آذاننا فلا نسمع غير طرقات قلوبنا المضطربة .

## بين عشتروت والمسيح



بين تلك البساتين والتلول التي تصل أطراف بيروت بأذيال لبنان يوجد معبد صغير قديم العهد محفور في قلب صخرة بيضاء قائمة بين أشجار الزيتون واللوز والصفصاف . ومع ان هذا المعبد لا يبعد أكثر من نصف ميل عن طريق المركبات فقد قل من عرفه من محبي الآثار والخرائب القديمة ، فهو مثل أشياء كثيرة خطيرة في سوريا تختبئ وراء ستائر الاهیال ، فكان الاهیال قد أبقاه محجوباً عن عیون الأریین لیجعله خلوة لنفوس المتعبین ومزاراً للمحبین المستوحشین .

والداخل الى هذا المعبد العجیب یرى علی الجدار الشرقي منه صورة فينيقية الشواهد والبینات محفورة في الصخر قد محت أصابع الدهر بعض خطوطها ولونت الفصول معالمها ، وهي تمثل عشتروت ربة الحب والجمال جالسة علی عرش فخم ومن حولها سبع عذارى عاریات واقفات بیئات مختلفة ، فالواحدة منهن تحمل مشعلا والثانية قيثارة والثالثة مبخرة والرابعة جرة من الخمر والخامسة غصناً من الورد

والسادسة إكليلا من الفار والسابعة قوساً وسهاماً ، وجميعهن ناظرات الى عشقوت وعلى وجوههن سماء الخضوع والامتثال . وعلى الجدار الثاني صورة أخرى أحدث عهداً وأكثر ظهوراً تمثل يسوع الناصري مصلوباً والى جانبه أمه الحزينة ومريم المجدلية وامرأتان ثانيتان تفتحيان . وهذه الصورة البيزنطية الأسلوب والقرائن تدل على كونها حفرت في القرن الخامس او السادس للمسيح .

وفي الجدار الغربي كوفات مستديرتان يدخل منها شمع الشمس عند أصيل النهار وينسكب على الصورتين فتظهران كأنها قد طلبتا بماء الذهب .

وفي وسط المعبد حجر من الرخام مربع الشكل على جوانبه نقوش ووسامات قديمة الطراز قد انحجب بعضها تحت كتلات متحجرة من الدماء تدل على أن الأقدمين كانوا ينحرون ذبائحهم على هذا الحجر ويصبون فوقه قرابين الحمر والمطر والزيت .

ولم يكن في هذا المعبد الصغير شيء آخر سوى سكينه عميقة تعانق النفس وهيبه سحرية تبيح بتموجاتها أسرار الآلهة وتتكلم بلا نطق عن مآتي الأجيال الغابرة ومسير الشعوب من حسالة الى حالة ومن دين الى دين ، وتستميل الشاعر الى عالم بعيد عن هذا العالم ، وتقنع الفيلسوف بأن الانسان مخلوق دين يشعر بما لا يراه ويتخيل ما لا تقع عليه حواسه ، فيرسم لشعوره رموزاً تدل بمانيها على خفايا نفس



ويجسم خياله بالكلام والانفسام والضور والتأثيل التي تظهر بأشكالها أقدس ميوله في الحياة واجمل مشتهياته بعد الموت .

في هذا الهيكل المجهول كنت ألتقي سلمى كرامه مرة في الشهر فنصرف الساعات الطوال ناظرين إلى الصورتين الفريبتين مفكرين بفتى الأجيال المصلوب فوق الجلجلة مستحضرين إلى مخيلتنا أشباح الفتيات والصبايا الفينيقيين الذين عاشوا وعشقوا وعبدوا الجمال بشخص عشوت فحرقوا البخور امام تماثيلها وهرقوا الطيوب على مذابحها ثم طوتهم الارض فلم يبق منهم سوى اسم تردده الأيام أمام وجه الأبدية .

ثم يصعب علي الآن ان أدون بالكلام ذكرى تلك الساعات التي كانت تجمعي بسلمى ، تلك الساعات العلوية المكتنفة باللذة والألم ، والفرح والحزن ، والأمل واليأس ، وكل ما يجمل الانسان انساناً والحياة لغزاً ابدياً . ولكن كم يصعب علي أن أذكرها ولا أرسم بالكلام الضئيل خيالاً من أخيلتها ليبقى مثلاً لأبناء الحب والكآبة .

كنا نختلي في ذلك الهيكل القديم فنجلس في بابه سائدين ظهرينا إلى جداره مرددين صدى ماضينا مستقصين ما في حاضرنا خائفين مستقبلنا . ثم تدرج إلى اظهار ما في أعماق نفسينا فيشكو كل منا لوعته وحرقة قلبه ومسا يقاسيه من الجزع والحسرة ، ثم يصبر واحداً الآخر باسطاً أمامه كل ما في جيوب الأمل من الأوهام المفرحة والأحلام العذبة ، فيهدأ

روعنا وتجبف دموعنا وتنفرج ملامحنا ، ثم نبتمس متناسلين كل شيء سوى الحب وافراحه ، منصرفين عن كل أمر إلا النفس وميوها ، ثم نتعاقق فنذوب شغفاً وهياماً ، ثم تقبل سلى مفرق شعري بطهر وانعطاف فتعلاً قلبي شعاعاً ، وأقبل أطراف اصابعها البيضاء فتغمض عينيها وتلوي عنقها العاجي وتتورد وجنتاهما باحمرار لطيف يشابه الأشعة الأولى التي يلقيها الفجر على جباه الروابي . ثم نسكت وننظر طويلاً نحو الشفق البعيد حيث الغيوم المتلونة بأنوار المغرب البرتقالية .

ولم تكن اجتماعاتنا مقتصرة على مبادلة العواطف وبث الشكوى ، بل كنا ننتقل على غير معرفة منا الى العموميات فنبتادل الآراء والأفكار في شؤون هذا العالم الغريب وتباحث في مرامي الكتب التي كنا نقرأها ذاكرين حسناتها وسيئاتها وما تنظوي عليه من الصور الخيالية والمبادئ الاجتماعية ، فتتكلم سلى عن منزلة المرأة في الجامعة البشرية وعن تأثير الأجيال الفائرة في أخلاقها وميوها وعن العلاقة الزوجية في أيامنا هذه وما يحيط بها من الأمراض والفساد . واني أذكر قولها مرة : ان الكتّاب والشعراء يحاولون إدراك حقيقة المرأة ولكنهم للآن لم يفهموا اسرار قلبها ونخبآت صدرها لأنهم ينظرون اليها من وراء نقاب الشهوات فلا يرون غير خطوط جسدها او يضمونها تحت مكبرات الكره فلا يجدون فيها غير الضعف والاستسلام .

وقولها لي مرة أخرى وقد أشارت بيدها إلى الرسمين  
المحفورين على جدران الهيكل : في قلب هذه الصخرة قد  
نقشت الأجيال ومزين يظهران خلاصة ميول المرأة ويستجلبان  
غوامض نفسها المراوحة بين الحب والحزن ، بين الانعطاف  
والتضحية ، بين عشقوت الجالسة على العرش ومريم الواقفة  
أمام الصليب ... ان الرجل يشترى الهد والعظمة والشهرة  
ولكن هي المرأة التي تدفع الثمن .

ولم يدر باجتماعاتنا السرية أحد سوى الله وأسراب العصفير  
المتطايرة بين تلك البساتين ، فسلمى كانت تجيء بمركبتها الى  
المكان المدعوم بجديقة الباشا ثم تسير الهويناء على الممرات المنفردة  
حتى تبلغ المعبد الصغير فتدخله مستندة إلى مظلتها وعلى وجهها  
لوانح الأمن والطمأنينة فتجدني منتظراً متوقفاً مشتاقاً بكل ما  
في الشوق من الجوع والعطش .

ولم تخف قط عين الرقيب ولا شعرتا بوخز الضمير ، لأن  
النفس اذا تطهرت بالنار واغتسلت بالدموع ترفع عما يدعوه  
الناس عيباً وعاراً وتتحرر من عبودية الشرائع والنواميس التي  
سنتها التقاليد لمواطن القلب البشري وتقف برأس مرفوع  
أمام عروش الآلهة .

. ان الجامعة البشرية قد امتسكت سبعين قرناً الى الشرائع  
الفاصلة فلم تعد قادرة على إدراك معاني النواميس العلوية  
الأولية الخالدة . وقد تعودت بصيرة الانسان النظر الى ضوء

الشموع الضئيلة فلم تعد تستطيع ان تحرق الى نور الشمس .  
لقد توارثت الأجيال الأمراض والعمائم النفسية بعضها عن  
بعض حتى أصبحت عمومية ، بل صارت من الصفات الملازمة  
للإنسان فلم يعد الناس ينظرون اليها كماهات وأمراض بل  
يعتبرونها كخلال طبيعية ندية أنزلها الله على آدم ، فإذا مسا  
ظهر بيتهم فرد خال منها ظنوه ناقصاً محروماً من الكمالات  
الروحية .

أما الذين سيعيبون سلمى كرامه محاولين تلويث اسمها  
لأنها كانت تترك منزل زوجها الشرعي لتختلي برجل آخر  
فهم من السقاء الضعفاء الذين يحسبون الأصحاء مجرمين وكبار  
النفوس متمردين . بسلمى كرامه كالحشرات التي تدب في الظلمة  
وتخشى الخروج إلى نور النهار كيلا تدوسها أقدام العابرين .

ان السجين المظلوم الذي يستطيع ان يهدم جدران سجنه  
ولا يفعل يكون جباناً . وسلمى كرامه كانت سجينه مظلومة  
ولم تستطع الاعتناق ، فهل تلام لأنها كانت تنظر من وراء  
نافذة السجن الى الحقول الخضراء والفضاء الواسع ؟ هل  
يحسبها الناس خائنة لأنها كانت تجيء من منزل منصور بك  
غالب لتجلس بجانبه بين عشاروت المقدسة والجبار  
المصلوب ؟ ليقبل الناس ما شاؤوا ، فسلمى قد اجتازت  
المستنقعات التي تغمر أرواحهم وبلغت ذلك العالم الذي لا  
يلفه عواء الذئاب وفحيح الأفاعي . وليقبل الناس ما أرادوا

عني ، فالنفس التي شاهدت وجه الموت لا تذعرها وجوه  
الاصوص ، والجندي الذي رأى السيوف محتبكة فوق رأسه  
وسواقى الدماء تجري تحت قدميه لا يحفل بالحجارة التي يرشقه  
بها صبيان الأزقة .

## التضحية



ففي يوم من اواخر حزيران وقد ثقلت وطساة الحر في  
السواحل وطلب الناس أعالي الجبال ، سرت كعادتي نحو ذلك  
المعبد واعدأ نفسي بلقاء سلمى كرامه حاملا بيدي كتابا  
عقيداً من الموشحات الاندلسية التي كانت في ذلك العهد ولم  
تزل الى الآن تستميل روحي .

بلغت المعبد عند الاصيل فجلست ارقب الطريق المناسبة  
بين اشجار الليمون والصفصاف ، وانظر من وقت الى آخر  
الى وجه كتلي هامساً في مسامع الاثير ابيات تلك الموشحات  
التي تستهوي القلب برشاقة تراكيبها ورنه اوزانها ، وتعيد  
الى النفس ذكرى أمجاد الملوك والشعراء والفرسان الذين ودعوا  
غرناطة وقرطبة واشبيلية تاركين في قصورها ومعاهدها  
وحداتها كل ما في ارواحهم من الآمال والميول ثم تواروا  
وراء حجب الدهور والدمع في اجفانهم والحسرة في أكبادهم .

وبعد ساعة التفت فاذا بسلمى تيس بقدها التحيل بين  
الاشجار المحتبكة وتقرب نحوي مستندة الى مظلتها كأنها

تحمل كل ما في العالم من الهموم والمتاعب . ولما بلغت باب الهيكل وجلست بقربي نظرت الى عينيها الكبيرتين فرأيت فيها معاني وأسراراً جديدة غريبة توحى التحذر والانتباه وكثير حب الاستطلاع والاستقصاء .

وشعرت سلمى بما يحول في خساطري فلم تشأ أن يطول الصراع بين ظنولي وهواجسي ، فوضعت يدها على شعري . وقالت : اقرب مني ، اقرب مني يا حبيبي ، اقرب ودعني أزود نفسي منك ، فقد دنت الساعة التي تفرقنا الى الأبد . فصرخت قائلاً : ماذا تمنين يا سلمى ، وأية قوة تستطيع أن تفرقنا الى الأبد ؟

فأجابت : ان القوة العمياء التي فرقنا بالأمس ستفرقنا اليوم . القوة الخرساء التي تتخذ الشرائع البشرية ترجماناً عنها قد بنت بأيدي عبيد الحياة حاجزاً منيعاً بيني وبينك . القوة التي أوجدت الشياطين وأقامتهم أولياء على أرواح الناس قد حتمت علي ان لا أخرج من ذلك المنزل المبني من المعظام والجماجيم .

فسألته قائلاً : هل علم زوجك باجتماعاتنا فصرت تخشين غضبه والتقامه ؟

فأجابت إن زوجي لا يحفل بي ولا يدري كيف أصرف أيامي ، فهو مشغول عني بأولئك الصبايا المسكينات اللواتي تقودهن الفاقة الى أسواق النخاسين فيتمطرن ويكتعنطن ليبعن أجسادهن بالخبز المبعون بالدماء والدموع .

فقلت : إذا ماذا يصدك عن المجيء الى هذا المعبد  
والجاوس بجانبى أمام هبة الله وأشباح الأجيال ؟ هل فلتت  
النظر الى خفايا نفسي فطلبت روحك الوداع والتفريق ؟

فأجابت والدمع يراود اجفانها : لا يا حبيبي . إن روحي  
لم تطلب فراقك لأنك شطرها ، ولا ملت عيناي النظر اليك  
لأنك نورها . ولكن إذا كان القضاء قد حكم علي أن أسير  
على عقبات الحياة مثقلة بالقيود وبالسلاسل . فهل أرضى أن  
يكون نصيبك من القضاء مثل نصيبي ؟

فقلت : تكلمي يا سلمى واخبريني عن كل شيء ولا  
تتركيني ضائعاً بين هذه المعميات .

فأجابت : لا أقدر أن أقول كل شيء ، لأن اللسان الذي  
أخرسته الأوجاع لا يتكلم ، والشفاه التي نخم عليها اليأس لا  
تتحرك ، وكل ما أقدر أن أقوله لك هو ألي أخاف عليك من  
الوقوع في شرك الذين نصبوا لي الحبائل واصطادوني .

فقلت : ماذا تعنين يا سلمى ومن هم الذين تخافين علي  
منهم ؟

فسترت وجهها بيديها وتأوهت ملتاعة ثم قالت مترددة :  
ان المطران بولس غالب قد صار يعلم بأنني أخرج مرة في  
الشهر من القبر الذي وضعني فيه .

فقلت : وهل علم المطران بأنك تلتقين بي في هذا المكان ؟  
فأجابت : لو علم بذلك لما رأيتني الآن جالسة بقربك ،



ولكن الشكوك تخامره والظنون تتلاعب بأفكاره ، وقد بث عليّ الميون لثقبني وأوعز اليّ خدمه ليتجسوا حركاتي حتى صرت أشعر بأن للنزل الذي اسكنه والطرق التي أسير عليها نواظر تحدق بي وأصابع تشير إليّ وأذاناً تسمع همس أفكاري .

وأطرقت هنيئة ثم زادت والدمع ينسكب على وجنتيها :  
 أنا لا أخاف على نفسي من المطران لأن الغريق لا يخشى الببل ، ولكنني أخاف عليك وأنت حر كنور الشمس أنت تقع مثلي في أشراكه فيقبض عليك بأظافره وينهشك بأنيابه أنا لا أخاف من الدهر لأنه أفرغ جميع سهامه في صدري ، ولكنني أخاف عليك وأنت في ربيع العمر أن تلسع الأفعى قدميك وتوقفك عن المسير نحو قمة الجبل حيث ينتظرك المستقبل بأفراحه وأمجاده .

فقلت : ان من لا تلمسه أفاعي الأيام وتنهشه ذئاب الليالي يظل مغروراً بالأيام والليالي . ولكن اسمعي يا سلمى ، اسمعيني جيداً ، أليس أمامنا غير الفراق لتتقي صفارة الناس وشروهم ؟ هل سدت أمامنا سبل الحب والحياة والحرية فلم يبق غير الاستسلام الى مشيئة عبيد الموت ؟

فأجابت بلهجة يساورها القنوط والحسرة : لم يبق أمامنا غير الوداع والتفرق .

فأخذت يدها وقد تمرت روحها في داخلي وتبدد الدخان عن شملة فتوتي ، فقلت متهيجاً : قد استسلمنا طويلاً الى أهواء

الناس يا سلمى ... منذ تلك الساعة التي جمعنا حتى الآن ونحن نتقاد الى العميان ونركع أمام أصنامهم . منذ عرفتك ونحن في يد المطران بولس غالب مثل كرتين يلعب بنا كيفما أراد ويقذفنا حيثما شاء ، فهل نبقى خاضعين لديه محذقين الى ظلمة نفسه حتى يلوكننا القبر وتبتلعنا الأرض ؟ هل وهبنا الله نسمة الحياة لنضعها تحت أقدام الموت ، وأعطانا الحرية لنجعلها ظلًا للاستعباد ؟ ان من يخذل نفسه بيده يكون كافرًا بالسما التي اوقدتها . ومن يصبر على الضيم ولا يتمرد على الظلم يكون حليف البطل على الحق وشريك السفاحين بقتل الابرياء . قد احببتك يا سلمى واحببتني ، والحب كثر ثمين يودعه الله النفوس الكبيرة الحساسة ، فهل نرمي بكنزنا الى حظائر الخنازير لتبعثره بأفرفها وتذريه بأرجلها ؟ امامنا العالم مسرحاً واسماً مملوءاً بالمحاسن والغرائب ، فلماذا نسكن في هذا النفق الضيق الذي حفره المطران وأعوانه ؟ امامنا الحياة وما في الحياة من الحرية وما في الحرية من الغبطة والسعادة ، فلماذا لا نخلع الثبر الثقيل عن عاتقينا ونكسر القيود الموثقة بأرجلنا ونسير الى حيث الراحة والطمأنينة ؟ قومي يا سلمى نذهب من هذا المعبد الصغير الى هيكل الله الاعظم . هلمي نرحل من هذه البلاد وما فيها من العبودية والغباوة الى بلاد بعيدة لا تطاها أيدي اللصوص ولا يبلغها لهات الأبالسة . تعالي نسرع الى المشاطىء مستترين بوشاح الليل فنعتلي سفينة نقلنا الى ما وراء البحار وهناك نحييا حياة جديدة مكتشفة

بالطهر والتفاهم ، فلا تنفثنا الثعابين بأنفاسها ، ولا تدومنا الضواري بأقدامها . لا تترددي يا سلمى ، فهذه الدقائق اثمن من تيجان الملوك واسمى من سرائر الملائكة . قومي فلتبع عمود النور فيقودنا من هذه الصحراء القاحلة الى حقول تنبت الأزاهر والرياحين .

فهزت رأسها وقد شخصت عيناها بشيء غير منظور في فضاء ذلك الهيكل ، وسالت على شفيتها ابتسامة محزنة تعلن ما في داخل نفسها من الشدة والألم ، ثم قالت يهدوء : لا ، لا يا حبيبي ان السماء قد وضعت في يدي كأساً مفعمة بالحلل والعلقم وقد تجرعتها صرفاً ولم يبق فيها غير قطرات قليلة سوف أشربها متجلدة لأرى ما في قعر الكأس من الأسرار والخفايا . أما تلك الحياة الجديدة العلوية المكتنفة بالهبة والراحة والطمأنينة فأنا لا استحقها ولا أقوى على احتمال أفراسها وملذاتها ، لأن الطائر المكسور الجناحين يدب متنقلاً بين الصخور ولكنه لا يستطيع ان يسبح علقاً في الفضاء ، والعيون الرمضاء تحدق الى الأشياء الضئيلة ولكنها لا تقوى على النظر الى الأنوار الساطعة ، فلا تحدثني عن السعادة لان ذكرها يؤلني كالتعاسة ، ولا تصور لي الهناء لأن ظله يخيفني كالشقاء ... ولكن انظر إلي لأريك الشعلة المقدسة التي أوقدتها السماء بين رماد صديري .. أنت تعلم بأنني أحبك محبة الأم وحيدتها ، وهي المحبة التي علمتني أن أحبك حتى ومن

الأجنحة المتكسرة (٧)

نفسي . هي المحبة المطهرة بالنار التي توقفي الآن عن اتباعك  
الى أقاصي الأرض وتجعلني أميت عواطفني وميولي لكي تحيا  
أنت حراً نزيهاً وتظل في مأمن من لوم الناس وتقولاتهم  
الفاسدة . ان المحبة المحدودة تطلب امتلاك المحبوب ، أما  
المحبة غير المتناهية فلا تطلب غير ذاتها . المحبة التي تجيء بين  
يقظة الشباب وغفلته تستكفي باللقاء وتقتنع بالوصل وتنمو  
بالقبل والعناق ، أما المحبة التي تولد في احضان اللانهاية وتهبط  
مع أسرار الليل فلا تقتنع بغير الأبدية ولا تستكفي بغير  
الخلود ولا تقف متهيبة أمام شيء سوى الألوهية ... عندما  
عرفت بالأمس ان المطران بولس غالب يريد أن يمنعني عن  
الخروج من منزل ابن اخيه ويسلبني اللذة الوحيدة التي عرفتها  
مذ تزوجت ، وقفت أمام نافذة غرفتي ونظرت نحو البحر  
مفكرة بما وراءه من البلاد الواسعة والحرية المعنوية والاستقلال  
الشخصي ، وتحملت نفسي عائشة بقربك ، محاطة بأخيلة  
روحك مغمورة بانعطافك ، ولكن هذه الاحلام التي تنير  
صدور النساء المظلومات وتجعلنهن يتمردن على التقاليد الباطلة  
ليمشن في ظل الحق والحرية ، لم تمر في خاطري حتى جعلتني  
استصغر نفسي واستضعفها وأرى محبتنا واهية محدودة لا  
تستطيع الوقوف أمام وجه الشمس . فبكيت بكاء ملك  
أصاع ملكه وغني فقد كنوزه ، ولكنني ما لبثت أن رأيت  
وجهك من خلال دموعي وأبصرت عينيك محذقتين الي ،

فتذكرت ما قلته لي مرة وهو : هلمي يا سلمى نقف أمام  
الأعداء متلقين سفار السيوف بصدورنا ، فان صرعنا نمت  
كالشهداء وان تغلبنا نعيش كالانطال ، لأن عذاب النفس بثباتها  
امام المصاعب والمتاعب هو أشرف من تتهلرها الى حيث الأمن  
والطمأنينة ... هذه الكلمات قلتها لي يا حبيبي عندما كانت  
أجنحة الموت ترفرف حول مضجع والدي ، وقد ذكرتها  
بالأمس وقد كانت أجنحة اليأس تصفق حول رأسي ، فتقويت  
وتشجعت وشمرت وانا في ظلمة السجن بنوع من الحرية  
النفسية التي تستهون الشدائد وتستصغر الأحزان ، ورأيت  
حينا عميقا كالبحر عاليا كالنجوم متسما كالفضاء . وقد جئت  
اليوم اليك وفي نفسي المتوجعة المنهوكه قوة جديدة وهي المقدرة  
على توضيحية الأمر العظيم للحصول على أمر أعظم ، توضيحية  
سعادتي بقربك لكي تبقى أنت شريفا بعرف الناس بعيداً عن  
غدرهم واضطهادهم ... كنت اجيء بالأمس الى هذا المكان  
والقيود الثقيلة تنسل قدمي الضعيفتين ، اما اليوم فقد جئت  
شاعرة بعزم يهزأ بثقل القيود ويستقصر الطريق . كنت اجيء  
مثل طيف طارق خائف ، اما اليوم فقد جئت مثل امرأة  
حية تشعر بوجوب التوضيحية وتعرف قيمة الأوجاع وتريد ان  
تحمي من تحبه من الناس الأغبياء ومن نفسها الجائعة . كنت  
أجلس حذاءك مثل ظل مرتجف وقد أتيت اليوم لأريك حقيقتي  
أمام عشاروت المقدسة ويسوع المصلوب . انا شجرة ثابتة في

الظل وقد مددت اغصاني اليوم لكي ترتعش ساعة في نور  
النهار ... قد جئت لأودعك يا حبيبي فليكن وداعنا عظيماً  
وهائلاً مثل حينا ، ليكن وداعنا كالنار التي تصهر الذهب  
لتجعله اشد لمعانا .

ولم تترك لي سلمى مجالاً للكلام والاحتجاج بل نظرت الي  
وقد برقت عينها فأحاطت أشعتها بوجداني واتشحت ملامح  
وجهاً بنقاب من الهيبة والجلال فبانَت كملِيكة توحى الصمت  
والتخشع . ثم ارتمت على صدري بانعطاف كلي ما عهدته فيها  
قبل تلك الساعة ، وطوقت عنقي بزندها الأملس وقبلت  
شفتي قبة طويلة عميقة محرقة أيقظت الحياة في جسدي ،  
وأثارت الأسرار الخفية في نفسي ، وجعلت الذات الوضعية  
التي أدعوها « أنا » تتمرد على المسالم بأسره لتخضع صامتة  
أمام الناموس العلوي الذي اتخذ صدر سلمى هيكلًا ونفسها  
مذبحاً .

\* \* \*

ولما غربت الشمس وابتحت أشعتها الأخيرة عن تلك  
الحدائق والبساتين انتفضت سلمى ووقفت في وسط الهيكل  
ونظرت طويلاً إلى جدرانها وزواياها كأنها تريد أن تسكب  
نور عينيها على رسومه ورموزه ، ثم تقدمت قليلاً وجثت  
خاشعة أمام صورة يسوع المصلوب وقبلت قدميه المكومتين  
مرات متوالية ثم همست قائلة :

ها قد اخترت صليبك يا يسوع الناصري وتركت مسرات  
عشوت وأفراحها . قد كللت رأسي بالأشواك بدلاً من الفار ،  
واغتسلت بدمي ودموعي بدلاً من العطور والطيب ، وتجرعت  
الحل والمليح بالكأس التي صنعت للخمر والكوتر ، فاقبلني بين  
تابعيك الأقوياء بضعفهم وسيرني نحو الجلجلة برفقة مختاريك  
المستكفين بأوجاعهم المنبوطين على كتابة قلوبهم .

ثم انتصبت والتفتت نحو قائلتي :

سأعود الآن فرحة إلى الكهف المظلم حيث تراكض  
الأشباح الخفيفة ، فلا تشفق عليّ يا حبيبي ولا تعزن من أجلي ،  
لأن النفس التي ترى ظل الله مرة لا تخشى بعد ذلك أشباح  
الأبالسة ، والمين التي تكتحل بلمعة واحدة من الملائكة الأعلى لا  
تنمضها أوجاع هذا العالم .

وخرجت سلمى من ذلك المعبد ملتفة بملابسها الحريرية  
وتركتني حائراً ضائعاً مفكراً مجدوباً إلى مسارح الرؤيا حيث  
تجلس الآلهة على العروش وتدون الملائكة أعمال البشر وتتلو  
الأرواح مأساة الحياة وتترنم عرائس الخيال باناشيد الحب  
والحزن والخلود .

ولما صحت من هذه السكرية ، وكان الليل قد غمر  
الوجود بأمواجه القاتمة ، وجدتني هائماً بين تلك البساتين  
مسترجعاً إلى حافظتي صدى كل كلمة لفظتها سلمى ، معيداً  
إلى نفسي حركاتها وسكناتها وملامح وجهها وملامس

يديها ، حتى اذا ما انضحت لي حقيقة الوداع وما سيجيء بعده من ألم الوحشة ومرارة الشوق وجدت فكرتي وتراخت خيوط قلبي وعلمت لأول مرة ان الانسان وإن ولد حراً يظل عبداً لقساوة الشرائع التي سنّها آباؤه وأجداده ، وان القضاء الذي فتوهمه سرّاً علوياً هو استسلام اليوم الى ما آتى أمس ، وتخضوع الغد الى ميول اليوم . وكّمْ مرة فكرت منذ تلك الليلة الى هذا الساعة بالنواميس النفسية التي جعلت سلمى تختار الموت بدلاً من الحياة ، وكّمْ مرة وضعت نبالة التضحية بجانب سعادة التمردين لأرى أيها أجل وأجل ، ولكنني للآن لم أفهم سوى حقيقة واحدة وهي ان الاخلاص يجعل جميع الأعمال حسنة وشريفة ، وسلمى كرامه كانت الاخلاص متأنساً وصحة الاعتقاد منجسدة .



## المنقذ



ومرت خمسة أعوام . على زواج سلمى ولم ترزق ولداً  
ليوجد بكيانه العلاقة الروحية بينها وبين بعلمها ويقرب  
بإتسامته نفسها المتنافرتين مثلما يجمع الفجر أوأخر الليل  
وأوائل النهار .

والمرأة العاقر مكروهة في كل مكان لأن الأناثية تصور  
لأكثر الرجال دوام الحياة في أجساد الأبناء فيطلبون النسل  
ليظفوا خالدين على الأرض .

ان الرجل المادي ينظر الى زوجته العاقر بالعين التي يرى  
بها الانتعار البطيء فيمقتها ويهجرها ويطلب حتفها كأنها  
عدو غدار يريد الفتك به . ومنصور بك غالب كان مادياً  
كالتراب وقاسياً كالفولاذ وطامعاً كالقبرة ، وكانت رغبته بان  
يرث اسمه وسؤدده تكرهه بسلمى المسكينة وتحول محاسنها  
في عينيه الى عيوب جهنمية .

ان الشجرة التي تنبت في الكهف لا تعطي ثمراً ، وسلمى  
كرامه كانت في ظل الحياة فلم تثمر اطفالاً . ان البلبيل لا  
يحرك عشاً في القنص كيلا يورث العبودية لفراخه ، وسلمى

كرامه كانت سجينة الشقاء فلم تقسم السماء حياتها الى أسيرين .  
 إن أزاهر الأودية هي أطفال يلدها انعطاف الشمس وشغف  
 الطبيعة ، وأطفال البشر أزاهر يلدها الحب والحنو ، فسلى  
 كرامه لم تشعر قط بأنفاس الحنو وملامس الانعطاف في ذلك  
 المنزل الفخم القائم على شاطئ البحر في رأس بيروت ،  
 ولكنها كانت تصلي في سكينه الليالي ضارعة أمام السماء  
 لتبعث إليها بطفل يجفف بأصابعه الوردية دموعها ويزيل بنور  
 عينيه خيال الموت عن قلبها .

وقد صلت سلى متوجعة حتى مسلات الفضاء صلاة  
 وابتهالاً ، وتضرعت مستغيثة حتى بدد صراخها النجوم ،  
 فسمعت السماء نداءها وبثت في أحشائها نغمة مختمرة بالحلاوة  
 والمعذوبة وأعدتها بمد خمسة أعوام من زواجها لتصيرها أمًا  
 وتمعو ذلها وعارها .

الشجرة النابتة في الكهف قد أزهرت لتثمر .  
 البلبل المسجون في القفص قدم ليحوك عشًا من ريش  
 جناحيه .

القيثارة التي طرحت تحت الاقدام قد وضعت في مهيب  
 نسيم المشرق ليحرك بأمواجه ما بقي من أوتارها .  
 سلى كرامه المسكينة قد مدت ذراعيها المكبلتين  
 بالسلاسل لتقبل موهبة السماء .

وليس بين أفراح الحياة ما يضارع فرح المرأة العاقر عندما  
 تهبها النواميس الأزلية لتصيرها أمًا . كل ما في يقظة الربيع

من الجمال ، وكل ما في مجيء الفجر من المسرة ، يجتمع بين  
أضلع المرأة التي حرمها الله ثم اعطاها .

لا يوجد نور أشد سطوعاً واحكاماً لمعاناً من الاشعة التي  
يبعثها الجنين السجين في ظلمة الاحشاء .

وكان نيسان قد جاء متنقلاً بين الروابي والمنحدرات  
عندما تمت ايام سلمى لتلد بكرها ، وكان الطبيعة قد وافقتها  
وعاهدتها فأخذت تضع حمل ازاها وتلف بأقمطة الحرارة  
اطفال الأعشاب والرياحين .

مضت شهور الانتظار وسلمى تترقب الخلاص مثلما يترقب  
المسافر طلوع كوكب الصباح ، وتنظر الى المستقبل من وراء  
دموعها فتراه مشمساً ، وقد طالمسا ظهرت الأشياء الغائبة  
متلزمة من خلال الدموع .

ففي ليلة وقد طافت أشباح الظلام بين تلك المنازل في  
رأس بيروت ، انطرحت سلمى على مضجع الخواض  
والأوجاع ، فالتصب الموت والحياة يتصارعان بجانب فراشها ،  
ووقف الطيب والقابله ليقدمها الى هذا العالم ضيفاً جديداً ،  
وسكنت حركة عابري الطريق وانخفضت نفمة أمواج البحر  
ولم يعد يسمع في ذلك الحي سوى صراخ هائل يتصاعد من  
لواقد منزل منصور بك غالب .. صراخ انفصال الحياة عن  
الحياة .. صراخ محبة البقاء في فضاء اللاشيء والعدم ...  
صراخ قوة الانسان المحدودة امام سكينه القوي غير  
المتناهية .. صراخ سلمى الضميمة المنطرحة تحت أقدام

جبارين : الموت والحياة .

عندما لاح الفجر ولدت سلمى ابناً ، ولما سمعت اهلاله  
فتحت عينيها المغلفتين بالأم ونظرت حواليتها فرأت الأوجه  
متهللة في جوانب تلك الغرفة ... ولما نظرت ثانية رأت  
الحياة والموت ما زالا يتصارعان بقرب مضجعا ، فعادت  
وأغمضت عينيها وصرخت لأول مرة : يا ولدي .

ولفت القابلة الطفل بالأقمطة الحريرية ووضعت حذاء أمه ،  
أما الطيب فظل ينظر بعينين حزينتين نحو سلمى ويهز رأسه  
صامتاً بين الدقيقة والأخرى .

وأيقظت نعمة الفرح بعض الجيران فجاءوا بلباس النوم  
ليهنثوا الوالد بولده ، أما الطيب فبقي ينظر بعينين كئيبتين  
نحو الوالدة وطفلها .

وأسرع الخدم نحو منصور بك ليبشروه بقدم وارثه ويأروا  
أيديهم من عطاياه ، أما الطيب فلبث واقفاً ينظر بعينين  
يائستين الى سلمى وابنها .

ولما طلعت الشمس قربت سلمى ولدها من ثديها ففتح  
عينيها لأول مرة ونظر في عينيها واختلج وأغمضها لآخر  
مرة ، فسدتا الطيب وأخذته من بين ذراعيها وانسكبت على  
وحنليه دمعتان كبيرتان ثم همس في سره قائلاً : هو زائر  
راسل ا .

مات الطفل وبسكان الحي يفرحون مع الوالد في القاعة  
الكبرى ويشربون نخبه ليعيش طويلاً ، وسلمى المسكينة تحددق الى

الطيبب وتصرخ قائلة: أعطني ولدي لأخيه ، ثم تحديق فأنسة  
فترى الموت والحياة يتصارعان بجانب سريرها .

مات الطفل ورنات الكؤوس تنمو وتتكاثر بين أيدي  
الفرحين بمجيئه .

ولد مع الفجر ، ومات عند طلوع الشمس ، فأبي بشري  
يستطيع أن يقيس الزمن ليخبرنا ما إذا كانت الساعة التي تمر  
بين مجيء الفجر وطلوع الشمس هي أقصر من الدهر الذي يمر  
بين ظهور الأمم وتوارثها ؟

ولد كالفكر ، ومات كالتنهدة ، واختفى كالظل ، فأذاق  
سلى كرامه طعم الأممه ولكنه لم يبقَ ليسعددها ويزيل يد  
الموت عن قلبها .

حياة قصيرة ابتدأت بنهاية الليل وانقضت بإبتداء النهار ،  
فكانت مثل قطرة الندى التي تسكبها أجفان الظلام ثم تجفها  
ملايس النور .

كلمة لفظتها النواميس الأزلية ، ثم ندمت عليها وأعادتها  
الى سكينه الأبدية ...

لؤلؤة قذفها المد إلى الشاطئ . ثم جرفها الجزر الى  
الأعماق : ...

زنبقة ما انبثقت من أكمام الحباة حتى انسحقت تحت  
أقدام الموت ..

ضيف عزيز ترقت سلى قدومه ولكنه ، ما حل حتى  
ارتحل ، وما فتح مصراعي الباب حتى اختفى .

جنين ما صار طفلاً حتى صار تراباً - وهذه حياة الانسان  
بل حياة الشعوب ، بل حياة الشمس والأقمار والكواكب ..  
وحولت سلى عيليا نحو الطبيب وتهدت بشوق جارح ثم  
صرخت قائلة :

أعطني ابني لأضمه بذراعي .. أعطني ولدي لأرضعه ...  
فكس الطبيب رأسه وقال والغصات تخرسه :  
قد مات طفلك يا سيدي فتجلدي وتصبري لكي  
تمشي بعده .

فصرخت سلى بصوت هائل ، ثم سكنت هنيهة ، ثم  
ابتسمت ابتسامة فرح ومسرة ، ثم تهلل وجهها كأنها عرفت  
شيئاً لم تكن تعرفه وقالت بهدوء : أعطني جثة ولدي ...  
قرّبها مني ميتاً .

فحمل الطبيب الطفل الميت ووضع بين ذراعيها فضمته  
الى صدرها وحولت وجهها نحو الحائط وقالت تخاطبه :  
قد جئت لتأخذني يا ولدي . جئت لتدلني على الطريق  
المؤدي الى الساحل . ها أنذا يا ولدي فسر أمامي لنذهب من  
هذا الكهف المظلم .

وبعد دقيقة دخلت أشعة الشمس من بين ستائر النافذة  
وانسكبت على جسدين هامدين منطرحين على مضجع تخفّره  
هيبة الأمومة وتظله أجنعة الموت .

فخرج الطبيب باكياً من تلك الغرفة ، ولما بلغ القاعة  
الكبرى تبدلت تهاليل المهنيين بالصراخ والمويل ، أما

منصور بك غالب فلم يصرخ ولم يتنهد ولم يذرف دمعاً ولم يقه  
بكلمة بل لبث جامداً منتصباً كالصنم قابضاً بيمينه على كأس  
الشراب .

\* \* \*

في اليوم التالي كفنت سلمى بأثواب عرسها البيضاء ووضعت  
في تابوت موسى بالحمل الناصع ، أما طفلها فكانت أكفائه  
أقمطته وتابوته ذراعى أمه وقبره صدرها الهادى .  
حملوا الجثتين في نعش واحد ومشوا يبطء متلف يشابه  
طرقات القلوب في صدور المنازعين ، فسار المشيعون وسمرت  
بينهم وهم لا يعرفونني ولا يدرون ما بي .  
بلغوا المقبرة فانتصب المطران بولس غالب يرتل ويعزم ،  
ورقف الكهان حوله ينغمون ويسبحون وعلى وجوههم الكالحة  
نقاب من الخلو والنفول .  
ولما أنزلوا التابوت إلى أعماق الحفرة همس أحد الواقفين  
قائلاً :

هذه أول مرة رأيت جسدين يضمها تابوت واحد ...

وقال آخر :

كان طفلها قد جاء ليأخذها وينقلها من مظالم زوجها

وقساوته .

وقال آخر :

تأملوا بوجه منصور بك فهو ينظر الى الفضاء بعينين

زجاجيتين كأنه لم يفقد زوجته وطفله في يوم واحد .

وقال آخر :

غداً يزوجه عمه المطران ثانية من امرأة أخزى أو فر ثروة  
وأقوى جسماً .

وظل الكهان يرتلون ويسبحون حتى فرغ حفار القبور  
من ردم الحفرة فأخذ المشيمون إذ ذاك يقتربون واحداً واحداً  
من المطران وابن أخيه يصبرونها ويؤاسونها بمستعذبات الكلام ،  
أما أنا فبقيت واقفاً منفرداً وحدي وليس من يمزيني على  
معسيتي ، كان سلمي وطفلها لم يكوّن أقرب الناس إليّ .

عاد المشيمون وبقي حفار القبور منتصباً بجانب القبر  
الجديد ، وفي يده رفشه ومحفرة ، فدلوت منه وسألته قائلاً :  
أتذكر أين قبر فارس كرامه ؟

فنظر إليّ طويلاً ثم أشار نحو قبر سلمي وقال :

في هذه الحفرة قد مدت ابنته على صدره ، وعلى صدر  
ابنته قد مدت طفلها ، وفوق الجميع قد وضعت التراب بهذا  
الرفش .

فأجبته : وفي هذه الحفرة أيضاً قد دفنت قلبي أيها الرجل ،  
فما أقوى ساعديك !

ولما توارى حفار القبور وراء أشجار السرو خانني الصبر  
والتجعد فارتيمت على قبر سلمي أبكيها وأرثيها .



# فهرست

<u>صفحة</u>	<u>الموضوع</u>
٥	كلمة الناشر
٧	توطئة
١١	الكآبة الخرساء
١٥	يد القضاء
٢٠	في باب الهيكل
٢٥	الشعلة البيضاء
٢٩	العاصفة
٤٣	بحيرة النار
٦١	أمام عرش الموت
٧٧	بين عشقوت والمسيح
٨٤	التضحية
٩٥	المنقلد











To: [www.al-mostafa.com](http://www.al-mostafa.com)